

جان بریاجیه

البنيويّة

مَرْجَمَة

عارف منیمه

و بشیر اوبری

البنيوت

جان بيساجيه

استاذ في كلية العلوم في جنيف

البنيوية

مُرجَّمة

عبدالله الوبري

عارف منيمته

منشورات عويدات

بيروت - باريس

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الرابعة ١٩٨٥

مقدمة

إذا تصفحنا الكتب الجديدة عن البنيوية التي تصدر في اللغات الأجنبية (والفرنسية خاصة) ، نلاحظ أن أول ما يشير إليه المؤلفون هو كون النسبة العامة بدأت تتناقل الكلام عن البنيوية أينما كان ، وبعبارة أخرى يسود البليونيين ، والفلاسفة بشكل عام ، جو من الإزعاج بسبب «الموضة» التي بدأت تلقاها البنيوية في الغرب ، في حين أن الوطن العربي لم يسمع حتى الآن بهذا العلم سوى في بعض الميادين الثقافية النادرة .

ونحن لا نتوخى من خلال نشر كتاب «جان بياجي» هذا أن يُلهم القراء العرب ويستوعبوا الطريقة البنيوية ببساطة ، رغم أن المؤلف تعرض لها في شتى الميادين التي دخلتها : من علم الرياضيات حيث يسهل شرح مفهوم البنية وتحويلاتنا وجُمُلتها إلى الأندروبولوجيا (أي الإناسة) حيث أثبتت البنيوية أقدامها مع «كلود ليفي شتراوس» ، مروراً بعلم الفيزياء وعلم الأحياء (البيولوجيا) وعلم اللغة وعلم النفس ، ولكننا نتوخى أن يستشف القارئ البنيوية في عامتها أولاً وفي مفاهيمها ، ونريده أيضاً أن يتعرف إلى المشاكل التي تتعرض لها والتي تثيرها ، من مشكلة تكوين البنية إلى مشكلة تواجدها في جميع الميادين ، على ألا يكون استيعاب البنيوية بمخادفها بما هي علم يمكن انطلاقاً منه تطوير الميادين العلمية والفنية التي تطرق لها إلا بتناول البنيوية في علم من العلوم تسربت إليه كانت لتناول البنيوية وكيفية دخولها على علم اللغة من خلال دراسة مؤلفات وفردينان دي سوسور ، الذي يعتبر الرائد الأول للبنيوية ، وإما على علم الاجتماع من خلال مؤلفات «كلود ليفي شتراوس» أو «لوي ألتوسير» ، وإما على علم النفس

وعلم النفس التحليلي من خلال مؤلفات « ميشال فوكو » أو « جاك لا كان » ،
الخ... غير أن جان بياجيه لم يترك أحداً من هؤلاء البنيويين إلا وتناول منطقته
البنيوي محلاً مفسراً مهتماً فأقداً ، مظهرراً عند كل منهم نقاط الضعف ونقاط
القوة ، لذلك فإن في هذا الكتاب الموجز والمكتشف عن البنيوية ما يكفي
لتفهم أولي للبنيوية بالإضافة إلى إغناء قيسم لها .

لا بد أخيراً من الإشارة إلى الصعوبة التي تعترض ترجمة كتاب من هذا النوع
إذ أن « الألفاظ التقنية » الخاصة بالأسلوب البنيوي تفوق الكلمات العادية
لذلك حاولنا قدر المستطاع توضيح الأمور ، خاصة وأنها ألفاظ جديدة حتى
على اللغة الفرنسية نفسها ، وذلك بتفسير لها حين يلزم الأمر ذلك .

ولا يسعنا أخيراً سوى أن تمنى بأن ينتشر هذا المنطق التحليلي عند
الكُتّاب والمفكرين العرب وليست ترجمة هذا الكتاب سوى مساهمة منا في
السير على هذه الطريق .

المترجمان

بيروت في ١٩٧١/٩/٢٧

١ | المدخل وطرح المسائل

١ - تحديدات . - قيل غالباً إنه من الصعب إيجاد ميزة للبنىوية ، ذلك أنها ارتدت أشكالاً كثيرة التنوع لا تسمح بتقديم قاسم مشترك وان « البنيات » المعروفة اكتسبت معانٍ تزداد اختلافاً . ومع ذلك ، فمن المقارنة بين المساني المتنوعة التي اتخذتها البنىوية في العلوم المعاصرة والنقاشات الجارية ، والتي ، للأسف ، كثر استعماؤها عرفاً ، تبدو محاولة التأليف ممكنة ولكن بشرط واضح وذلك أن نفرق ما بين المشكلتين المرتبطتين فعلاً ، رغم استقلاليتها قانوناً ، بين الفكرة المثالية الإيجابية التي تقضي مفهوم البنية في الصراعات أو في آفاق مختلف أنواع البنيات ، والنوايا النقدية التي رافقت نشوء وتطور كل واحدة منها مقابل التيارات القائمة في مختلف التعاليم .

ويجب إذاً سلفاً بهذا التفريق بين المشكلتين ، أن نعتز بوجود مثال مشترك من الوضوح يصل إليه أو يحاول إيجاد جميع البنيويين ، فيما تختلف نواياهم النقدية إلى ما لا نهاية . فيرى البعض أن البنىوية ، كما في الرياضيات ، تتعارض مع تجزئة الفصول غير المتجانسة محاولين إيجاد الوحدة بواسطة تشكلات ، والبعض الآخر يرى ، كما لأجيال متتالية من اللغويين ، أن البنىوية تجاوزت الأبحاث التطورية التي تتنساؤل ظواهر منعزلة وأخذت بطريقة المجموعات للنظام اللغوي المترام . أما في علم النفس فقد زادت البنىوية من معاركها ضد الميول «النظرية» atomistique التي كانت تسعى لجعل المجموعات مقتصرة على روابط بين عناصر «مُسَبَّكة» . ويتضح من النقاشات الجارية هجوم

البنوية على التاريخية والنفسية وحتى في بعض الأحيان على جميع الأشكال
العائدة للذات الانسانية بشكل عام .

ومن البديهي اذاً ، انه إذا حاولنا تحديد البنية بالمقابل مع مواقف أخرى
وبالتحديد على التي أمكن لها محاربتها قلن نجد إلا مفارقات وتناقضات مرتبطة
بجميع تقلبات العلوم والأفكار . وبالعكس ، إذا ركزنا على المميزات الإيجابية
لفكرة البنية ، نجد على الأقل مظهرين مشتركين لجميع البنيات : من جهة مثلاً
أو آمالاً من الوضوح الضمني ، ترتكز على التسلسلة القائلة إن البنية تكفي
بذاتها ولا تتطلب لإدراكها اللجوء إلى أي من العناصر الغريبة عن طبيعتها ،
ومن جهة أخرى إنجازات تقدمها رغم تنوعها ، وذلك إلى حد ما يمكن معه
فعلياً إدراك بعض البنيات ، وحيث يوضح استعمالها بعضاً من ميزات العامة التي
تبدو ضرورية .

وتبدو البنية ، بتقدير أولي ، مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين كمجموعة
(تقابل خصائص العناصر) تبقى أو تقتني بلمبة التحويلات نفسها ، دون أن
تعدى حدودها أو أن تستعين بعناصر خارجية . وبكلمة موجزة ، تتألف
البنية من ميزات ثلاث : الجملة ، والتحويلات ، والضبط الذاتي .

وبالتقدير الثاني ، الذي قد يكون طوراً لاحقاً كما يمكن له أن يلي مباشرة
اكتشاف البنية ، يجب أن يكون بإمكان هذه الأخيرة أن تقسح المجال للتعميد
الاستنباطي . على أن يُفهم فقط أن هذا التعميد الاستنباطي هو من صنع
المنظر ، فبما للبنية استقلالاً عنه ، وأنه يمكن أن يُشرّجَ بمعادلة منطقية –
رياضية أو أن يُمرَّ بواسطة نموذج حيائي آلي . توجد إذا درجات مختلفة ممكنة
من التعميد الاستنباطي تتوقف على قرارات المنظر في حين يجب تحديد نمط
وجود البنية التي يكتشفها ، في كل حقل خاص من الأبحاث .

ويمكننا مفهوم التحويل من أن نحدد أولاً المسألة لأننا إذا أردنا أن
نعمل في فكرة البنية جميع الشكليات بمختلف معاني هذه الكلمة ، لفظت

البنوية بالفعل كل النظريات العلفية، التي ليست بالضبط تجريبية والتي 'ترجع' إلى أشكالٍ أو إلى جواهر، وحتى بعض منوعات التجريبية كـ 'الوضعية المنطقية' التي تستدعي اللجوء إلى أشكالٍ نحوية ودلالية لتفسير المنطق. والحالة هذه، وطبقاً للمنى الذي حددناه، لا يحتوي المنطق نفسه بنيات كبنيات مجموعة أو تحويلات: بل بقي، وبمظاهر متعددة، خاضعاً لذرية شديدة المقارمة، والبنوية المنطقية، منها، ما زالت في طور نشوئها.

سوف تقتصر إذاً، في هذا المؤلف، على البنيويات الخاصة بمختلف العلوم، بما يشكل بحد ذاته مجازفة، وكذلك، لكي ننتهي، على حركات فلسفية مستوحاة، على درجات متفاوتة، من بنيويات منحدرة من العلوم الانسانية. ولكن يجدر بنا ان نعلق بعض الشيء على التحديد المقترح وان نوضح كيف ان مفهوماً يبدو في الظاهر 'مجرداً' كنظام تحويلٍ معلق على نفسه، يمكن ان يولد في جميع المجالات آمالاً كبيرة.

٢ - *La totalité* - بدئية هي ميزة الجملة الخاصة بالبنيويات لأن المعارضة الوحيدة التي يتفق عليها البنيويون (بمعنى النوايا النقدية التي تكلمنا عنها في البحث السابق) هي تلك المتعلقة بالبنيات والجاميع أو تلك المركبة من عناصر مستقلة عن الكل. وتشكل البنية بالطبع من عناصر ولكن هذه العناصر تخضع لقوانين تميز المجموعة كمجموعة؛ وهذه القوانين المسماة تركيبية لا تقتصر على كونها روابط تراكمية ولكنها تضيف على الكل ككل خصائص المجموعة المغايرة لخصائص العناصر. الأعداد الصحيحة، مثلاً، لا توجد على انفراد ولم يتم اكتشافها في أي ترتيب كان لكي يعاد جمعها في كل، فانها لا تظهر إلا تبعاً لتسلسل الأعداد نفسه وهذا التسلسل يبدي خصائص بنوية، «فُرَّق» و «أجسام» و «حلقات» الخ، متميزة عن خصائص كل عسدد، الذي بها يخصصه يمكن أن يكون مزدوجاً أو مفرداً أو قابلاً للقسمه بـ $n < 1$ ، الخ. ولكن ميزة الجملة هذه تشير بالفعل عدداً من المشاكل منحتفظ بالرئيسيتين منها نسبة إلى طيعة الأولى وإلى تكوين الأخرى أو سبق تكوينها.

من الخطأ الاعتقاد ان المواقف العنصرية تقتصر ، في جميع الميادين ، على تفاوت : إما التعرف الى الجماعات بقوانينها البنوية ، وإما تركيب ذروي انطلاقاً من عناصر . ونلاحظ ، إذا كان القصد بليات مميزة أو صيفية ، أو إذا كان جمالات اجتماعية (طبقات اجتماعية أو مجموعات كاملة) الخ ... أنه تتعارض في تاريخ العلوم ، وبالنسبة الى الافتراضات الترابطية للتمييز أو الفردية لعلم الاجتماع ، نوعان من التطورات ظهر أن الثانية منها فقط موافقة لروح البنوية المعاصرة . تقوم الأولى على الاكتفاء بقلب المنهج الذي كان يبدو طبيعياً للعقول التي تريد ان تتجه الطريق من السهل الى الصعب وعلى ترتيب الجمالات ، لا أكثر ، منذ الانطلاق حسب نوع من البروز يعتبر قانوناً في الطبيعة . عندما أراد دأوغست كونت ، أن يُفسّر الانسان بالانسانية وليس الانسانية بالانسان ، وعندما اعتبر دوركام ان الكل الاجتماعي ينبثق عن اجتماع الأفراد كانبثق الجزئية عن اجتماع الذوات او عندما اعتقد الصيغيون (الجشطالتيون) انهم يميزون ، بين الادراكات الأولية ، جملة فورية مقارنة مع مفعول المجال الكهربيسي ، كان لهم بالطبع فضل تذكرنا بأن الكل يختلف عن مجرد جمع لعناصر مقدمة ، ولكن باعتبار الكل سابقاً للعناصر او معاصراً لها ، كانوا يساهمون على أنفسهم المهمة على حساب تفويت المسائل الأساسية لطبيعة قوانين التركيب .

وهكذا ، فمن وراء أشكال الترابط البذرية وأشكال الجمالات البارزة ، يوجد وضع ثالث وهو الوضع المتعلق بالبنويات العملية : وانه الوضع الذي يقبى موقفاً ترابطياً منذ البدء ، والذي حسب له ليس المهم لا العنصر ولا الكل المفروض ككل دون ان تتمكن من التحديد كيف ، بل العلاقات بين العناصر ويتميز آخر مناهج او سياقات التركيب (هذا اذا كنا نتكلم عن عمليات عديدة او حقائق موضوعية) . ويكون الكل حصيلة هذه العلاقات او التراكييب التي تشكل قوانينها قوانين المجموعة .

وتبرز عندئذ مشكلة ثانية أكثر خطورة تشكل بالحقيقة المشكلة الأساسية لكل بنوية :

هل كانت الجملات التركيبية مركبة دائماً ؟ لكن كيف ومن ؟ او هل انها كانت قبل ذلك (او ما زالت) في طور التركيب ؟ وبتعبير آخر هل للبنيات تكوين أم انها لا تعرف سوى سبق تكوين أزلي تقريباً ؟ والبنوية مدعوة لأن تختار او تبحث عن حلول للتخطي بين أصول غير مبنية تفرضها الرابطة الضرورية وعودتنا عليها التجريبية ، وجملات او أشكال بلا أصل قوشك باستمرار ان تلحق بميدان الجواهر الصوري للسلسلة الأفلاطونية او الأشكال الأولية . وفي هذه الحال يكثر بالطبع تشعب الآراء حول هذه النقطة حتى تصل الى الرأي الذي يعتبر ان مسألة البنية والأصل لا يمكن لها ان تطرح ، كون الأولى لازمنية بطبيعتها (وكان هذا لم يكن اختيارياً وبالتحديد بمعنى سبق التكوين) .
توضع هذه المسألة التي يثيرها قبل مفهوم الجملة نفسه حالما نتناول بحدية الميزة الثانية للبنيات ، بالمعنى المعاصر للفظه والذي هو اعتبارها مجموعة تحويلات وليس مجرد أي شكل سكوني .

٣ - التحولات Transformations . - اذا اعتبرنا ان ميزة الجملات البنائية تتمسك بقوانين تركيبها تكون عندئذ بنهضة Structurantes بطبيعتها .
تفسر هذه الازدواجية الثابتة . او بكلمة أوضح الثنائية التقطية القابلة لأن تكون دائماً وبنفس الوقت بناءة ومبنية ، تفسر بموضع أولي رواج هذا المفهوم الذي يؤمن ، كمفهوم «النظام» عند كورنو (حالة خاصة بالنسبة للبنيات الرياضية الحالية) معقوليته بممارسته هو بنفسه . وهكذا لا يمكن لنشاط بنائي إلا أن يقوم على مجموعة تحويلات . .

هذا الشرط المحدث يمكن ان يبدو مفاجئاً إذا عودنا الى المطلقات السوسورية Saussuriens (فضلاً عن أن سوسور Saussure لم يكن يتكلم إلا عن مجموعة ليميز بين قوانين التقابل والتوازن المتزامنة) .
او الى الأشكال الأولى للبنوية النفسية لأن وحدة الصيغة (الجشلت) (Gestalt) تميز أشكالا إدراكية بشكل عام وسكونية . والحالة هذه يجب ألا نكتفي

بالحكم على تيار فكري من ناحية وجهته ولا حصره بمصادره، لكننا أيضاً نرى بزوغ الأفكار التحويلية منذ هذه الإنطلاقات اللغوية والنفسية . ان النظام اللغوي المتزامن ليس ثابتاً : فهو يكبت أو يقبل الابتكارات ، تبعاً للحاجات المحددة ، بتعارضات أو علاقات النظام دون ان نكون قد شهدنا على الفور ولادة القواعد التحويلية على طريقة شومسكي ، وسرعان ما يمتد نوعاً ما ، التصور السوسوري للتوازن الحيوي عند بالي الى دراسة الأساليب التي تتناول قبل تحويلات وبالمعنى الضيق التغيرات الفردية . أما فيما يتعلق بالصيغيات (Gestalts) النفسية ، وقد تكلم غترعوها منذ البداية عن قوانين « انتظام » تحول المعطى الحواسي والتصورات الاحتمالية التي يمكن ان تعلقنا في يومنا هذا ، فقد شدوا على هذا المظهر المحول للادراك .

في الواقع تُشكّل كل البنيات المعروفة ، منذ الفرق الرياضية الأكثر بساطة وحتى الفئات التي تنظم القرصبي الخ... ، مجموعات من التحويلات ولكن تلك التحويلات يمكن أن تكون لازمنية (لأن $1 + 1$ يساوي فوراً ٢ ، كما أن ٣ تلي ٢ دون فاصل زمني) او زمنية (لأن الاتحاد يتطلب وقتاً) فلو كانت البنيات لا تحتوي على تحويلات من هذا النوع لكانت اختلطت مع أية أشكال سكونية وفقدت أية فائدة تفسيرية تطرح عندئذ قطعاً مسألة مصدر هذه التحويلات وبالتالي علاقتها بمفهوم التكوين بلا زيادة . ويجب أن نميز بالطبع ، داخل البنية ، بين العناصر التي تخضع لهذه التحويلات والقوانين التي تضبط هذه الأخيرة : ومثل هذه القوانين تستطيع أن تُشكّل بسهولة على أنها ثابتة حتى لنجد داخل بنيويات ليست بالضبط شكلية (بمعنى علوم تقعيد الاستنباط) عقولاً بمتازة وقليلة الميل الى تكوين علم النفس كي تقفز دفعة واحدة من رسوخ القواعد في التحويلات الى فطريتها : تلك هي الحالة مثلاً بالنسبة لـ « نوام شومسكي » الذي تبدو له القواعد المولدة ملتزمة الحاجة للقوانين النحوية الفطرية ، كأن الرسوخ لا يمكن أن يفسر بسياقات جبرية التوازن ، وكان الرجوع الى علم الأحياء الذي

تقدمه فرضية فكرية لا يثير مشاكل في التكوين باللغة التعقيد كشاكل تكوين علم النفس (La psychogenèse) .

أما الأمل الضمني لجميع البنيويات المناقضة للتاريخية وللوراثية فهو إرساء البنيات نهائياً على أسس لازمنية كما هو الحال بالنسبة للأنظمة المنطقية ... الرياضية (ضمن هذا الاعتبار توافق فطرية شومسكي اقتصار نحويتها على بنية شكلية أحادية الفكرة) . وإذا سلمت بنظرية عامة للبنيات ، عندئذ لا يمكن لها أن تطابق حاجات عملية انضباطية مشتركة فلن يعود ممكناً إلا أن نتساءل ، بوجود مجموعة تحويلات لازمنية كثرة أو كشبكة « مجموع الأجزاء » ، عن كيفية الحصول عليها ، سوى بالنفي الى مواطن السمو الإلهية . ويمكن عندئذ أن نتجه في عملنا قرارات كأن نضع أوليات ، ولكن ، من النظرة العملية ، يشكل هذا طريقة أنيقة للسرقه تقتضي باستغلال العمل السابق لطبقة كادحة من البنائين عوض عن أن نبني بأنفسنا عدة الانطلاق . أما الطريقة الأخرى التي هي من الناحية العملية أقل عرضاً للاستلابات القادرة على المعرفة ، فهي طريقة سلالية البنيات التي يفرضها التمييز الذي قدمه غوديل : بين القوة او الضعف الكبيرين تقريباً (راجع الفصل الثاني) ؛ وفي هذه الحالة لا يمكن تجنب مسألة أساسية ، هي غير مسألة التاريخ ولا مسألة تكوين علم النفس لكن على الأقل مسألة بناء البنيات والعلاقات غير الانفصالية بين البنيوية والبنائية . وسيكون هذا موضوعاً من مواضعنا .

٤ - الضبط الذاتي L'autorégulation . - ان الميزة الأساسية الثالثة للبنيات هي انها تستطيع أن تضبط نفسها . هذا الضبط الذاتي ، يؤدي الى الحفاظ عليها ، والى نوع من الانغلاق .

وإذا بدأنا بهاتين الحاصلتين ، فانها تعنيان ، ان التحويلات الملازمة لبنية معينة لا تؤدي الى خارج حدودها ولكنها لا تولد إلا عناصر تنتمي دائماً الى البنية وتحافظ على قوانينها . وهكذا ، حين نجمع او نطرح مطلق عدد من

صحيحين، لمحصل دائماً على أعداد صحيحة ، تثبت قوانين الفريق الجمعي لهذه الأعداد . وهكذا ، وبهذا المعنى ، تتطوي البنية على نفسها ولكن هذا لا يعني أبداً أن البنية المعنية لا تستطيع الدخول على شكل بنية فرعية ضمن بنية أخرى أوسع مجالاً .

يبقى أن التعديل في الحدود العامة ، لا يلغي أبداً الحدود السابقة ، وبهذا لا يوجد إلحاق ، وإنما اتحاد ، ولا تتأثر قواعد البنية الفرعية بل تحافظ على نفسها بحيث يشكل التغيير الذي يكون قد جرى اغناء للبنية .

وتفترض ميزات المحافظة هذه ، بالإضافة الى سكونية الحدود ، ضبطاً ذاتياً للبنيات رغم البناء اللامتناهي لعناصر جديدة . وهذه الخاصة الضرورية ، تعزز بدون أدنى شك أهمية المفهوم والآمال التي تشيرها في جميع الميادين . لأننا حين نتوصل الى حصر حقل معين من المعارف ضمن بنية مضبوطة ذاتياً ، يخيّل لنا أننا نمثل الهرك الخاص للنظام . فضلاً عن أن الضبط الذاتي ، يتم حسب طرق أو سياقات مختلفة ، الشيء الذي يُدخّل اعتباراً ما الى سلسلة متزايدة من التعقيد ويعيد بالتالي الى مسائل البناء ومنها بالنهاية الى مسائل التكون .

في قمة السُّلم (حتى هذه اللفظة قابلة لأن نجعل حولها التضاربات ، فيتكلم البعض عن قاعدة الهرم فيما نرى نحن هذه القاعدة قمة) ، ينهج الضبط الذاتي عمليات جد مضبوطة وليست هذه الضوابط سوى القوانين الجملية للبنية المعنية . يقال عندئذ أن الكلام عن الضبط الذاتي تلاعب بالألفاظ ، إذ يدور التفكير إما حول قوانين البنية ، ومن البديهي أن تضبطها ، وإما حول العالم الرياضي أو المنطقي الذي يعمل ، ومن البديهي ، مجدداً ، أن يضبط أعماله اذا كان في حالة طبيعية .

فاذا ضبطت عملياته جيداً وإذا كانت قوانين البنية قوانين تحويلات ، وبالتالي ذات طابع عملي ، يبقى أن نتساءل عن مساهمة العملية في المنظور البنيوي .

والحالة انها ، من وجهة نظر الاحيائية الآلية Cybernétique (أي علم الضبط) انتظام كامل : وهذا يعني انها لا تنحصر بتصحيح الأخطاء على ضوء نتيجة الأفعال ، بل تكون منها تصحيحاً مسبقاً بفضل أساليب داخلية للمراقبة كالمكوسية (مثلاً : + من - من = صفر) وهي مصدر مبدأ التناقض (إذا + من - من لا يساوي صفراً فإن من لا تساوي من) . و يوجد من جهة أخرى الفئة الضخمة للبنى المنطقية ، دون حصر المعنى ، او الرياضية أي التي تجري تحويلاتها في الزمان : اللغوية ، الاجتماعية ، النفسية ... الخ ويبدو اذاً بديهياً ان ضبطها الفعلي يفترض في هذه الحالة انتظامات بالمعنى الإحيائي الآلي للفظ ، مرتكزة ليس على عمليات بحتة ، أي مكوسية كلية (بالتماكس او بالتبادليات) ولكن على لعبة استباقات ومفاعيل رجعية « Feedback » يغطي مجال تطبيقها الحياة بكاملها (منذ الانتظامات الفيزيولوجية) والـ Homeostatic او الـ : « pool Génétique du genome » . (راجع الفقرة ١٠) .

وأخيراً تبدو التنظيمات بالمعنى الاعتيادي للكلمة كأنها تقتج تماماً اجراءات بنائية أكثر سهولة ، ومن الصعب رفض حق دخولها الى ميدان البنيات بشكل عام . انها الأوليات الإيقاعية التي نجد لها على كل المستويات الحياتية والانسانية^(١) ، في حين ان هذا الإيقاع يؤمن انتظامه الذاتي بالوسائل الأكثر بساطة المبينة على التناظرات والإعادات .

إيقاعات ، تنظيمات ، عمليات ، تلك هي السياقات الثلاثة الأساسية للضبط الذاتي او الحفاظ الذاتي للبنى . ولكل واحد الخيار في ان يرى فقرات البناء « الحقيقي » لهذه البنيات او ان يقلب التركيب واضعاً في القاعدة الأوليات العملية في شكل لازمي وشبه أفلاطوني ومستخلصاً بعد ذلك كل الباقي .

(١) وقد تأسس منذ بضع سنوات تعليم كامل يختص مع تفسياته الرياضية التجريبية ومكرس علم الإيقاعات والفدريات الإحيائية (إيقاعات دورية تدوم ٢٤ ساعة وعامة ليلية) .

ونجد أخيراً أن التراكيب التي تربط بين عناصر الفريق هي تراكيب ترتيبية
(هنا [س + ش] + ص = س + [ش + ص]) .

وباعتبارها أساساً في علم الجبر، تكشفت بنية الفريق عن عمومية وخصوصية
عجيبتين ، حتى بقنا نجدها في أغلب الميادين الرياضية تقريباً وفي المنطق؛
واكتسبت في الفيزياء أهمية أساسية وأصبح من المحتمل أن نجدها يوماً في
البيولوجيا . من المهم إذاً أن نحاول فهم أسباب هذا النجاح لأنه إذا قُدر
واعتبرنا الفريق بعبارة لبنيات وفي ميادين يجب فيها إقامة البرهان على كل المقدمات،
يعطينا الفريق، عندما يرتدي أشكالاً واضحة ، أقوى بواعث الأمل في مستقبل
البنوية .

أولى هذه البواعث هي الشكل المنطقي — الرياضي للتجريد الذي يتجهجه
الفريق والذي يفسر عمومية استعماله . عندما 'تكتشف' إحدى خواص
الأشياء بالتجريد انطلاقاً من الأشياء نفسها فإنها 'تعلّمنا' بالطبع عن هذه الأشياء،
ولكن كلما كانت الخاصة عمومية كلما 'فقرت' وقلّ استعمالها لأنها تطبق على كل شيء .
وعلى العكس فإن ما يخص التجريد العاكس *Abstraction réfléchissante* الذي
يبرز الفكر المنطقي الرياضي ، هو كونه مستقٍ ليس من الأشياء نفسها ،
ولكن من الأفعال التي يمكن ممارستها عليها ، وبالأخص من التنسيقات الأكثر
عمومية لهذه الأفعال ، كان نضم وترتيب ونطابق الخ ...

وعلى هذا الأساس ، فإن هذه التنسيقات العمومية ، هي التي نعود ونجدها
بالضبط في الفريق وقبل كل شيء :

أ — إمكانية الرجوع إلى نقطة الانطلاق (العملية العكسية للفريق) .

ب - إمكانية الوصول الى هدف واحد بطرق مختلفة ومن دون أن تتغير نقطة الوصول من جراء الطريقة المتبعة (ترتيبية الفريق) . أما بالنسبة لطبيعة التراكيب (الوصل reunion) فيمكن أن تكون مستقلة عن الترتيب (فريق تبادلي) او تتعلق بترتيب ضروري .

وعلى هذا ، تعدو بنية الفريق ، أداة تماسك تحتوي على منطقها الخاص بضبطها الداخلي او انتظامها الذاتي . وبالفعل يستخدم الفريق مهارته نفسها ثلاثة من المبادئ الأساسية للعقلانية :

— مبدأ عدم التناقض الذي يتجسد في معكوسية التحويلات .

— مبدأ التطابق الذي يؤمن نفسه باستمرارية العنصر المحايد ، وأخيراً هذا المبدأ الذي قلما يركز عليه ولكن الذي يبقى مع ذلك أساسياً ، هذا المبدأ هو ان نقطة الوصول تبقى مستقلة عن الطريقة المتبعة .

مثالاً على ذلك ، تشكل الانتقالات في الفراغ فريقاً (لأن انتقالين متتاليين بمطيان انتقالاً أيضاً ، ولأن أي انتقال يمكن أن يلغى بالانتقال الماكس او ما يسمى « بالعودة... الخ) . وفي هذه الحالة فإن ترتيبية فريق الانتقالات التي تناسب قيادة « الدورات » تشكل ضمن هذا الاعتبار نقطة أساسية لتماسك الفراغ لأن نقاط الوصول اذا تغيرت دائماً بفعل الطرق المتبعة فلن يعود هنالك فراغ وإنما تدفق دائم يمكن مقارنته بنهر هيراقليطس .

ثم ان الفريق أداة أساسية للتحويلات ولكن لتحويلات عقلانية لا تغير الكل دفعة واحدة . لكن تبقى كل واحدة منها متضامنة مع عنصر لا يتغير . وهكذا عندما ينتقل جسم في الفراغ التقليدي تبقى مقاييسه على حالها . كما ان تجزئة الكل الى كسور تبقى المجموع الاجمالي لهذه الكسور على ما هو عليه . الخ . وتكفي بنية الفريق وحدها لكشف الميزة المصطنعة للنقيضة التي اعتمد عليها ميرسون

لإرساء علوميته التي تقول بأن كل تبديل كان لاعقلانياً وإن الهوية وحدها تميز العقل . يشكل الفريق ، تنسيقاً لا يتفكك لتحويل والحفاظ ، أداة لا تضاهي للبنائية ، ليس فقط لأنه نظام تحويلات وإنما بالأخص لأنه يمكن معايرة هذه الأخيرة بواسطة القفصسل بين الفريق والفريق الفرعي وبالطرق الممكنة للمرور من أحدهما إلى الفريق نفسه . وهكذا لا يدع فريق الانتقالات قياسات الصورة المتقولة فقط ، ثابتة وإنما أيضاً الزوايا والمتوازيات والخطوط . الخ .

يمكننا عندئذ أن نغير القياسات ونحفظ كل الباقي فنحصل على فريق أعم ، ويصبح عندها فريق الانتقالات فريقاً فرعياً للتشابهات ، ويملك امكانية تكبير الصورة دون أن يغير شكلها .

ويمكننا بعد ذلك أن نغير الزوايا مع الحفاظ على المتوازيات والخطوط ... الخ . نحصل هنا أيضاً على فريق أكثر عمومية يشكل الفريق الفرعي التشابه فريقاً فرعياً منه ، وهو ما يسمى بالفريق الفرعي للهندسة المتقاربة التي نستعملها مثلاً حين نحول معيناً إلى معين آخر . ونكمل عملنا هذا مغيرين الخطوط فننتوصل بذلك إلى الفريق الاسقاطي (رئائيات Perspectives) تشكل الفرقات الفرعية السابقة متداخلة فيه . ويمكننا أخيراً ألا نبقى حتى الخطوط نفسها ونتفحص أشكالاً مطاطة نحفظ منها فقط بالمقابلات النظرية والمزدوجة التسابع bicontinues بين نقاطها . وعندئذ نحصل على الفريق الأكثر شمولاً والذي يسمى فريق homéomorphie المختص بالبيولوجيا . هكذا وعندما نستعمل بنية الفريق لا تعود تشكل الهندسات التي كانت تبدو وكأنها تمثل النموذج للأوصاف السكونية والتي كانت محض صورية ومجزأة إلى فصول منفصلة ، إلا بناء واسعاً تسمح تحويلاته ، نظراً لتداخل الفريق الفرعي ، بالمرور من بنية فرعية إلى بنية فرعية أخرى (هذا نؤمن أن تتكلم عن علم العروض العام الذي يمكن أن نسند إلى الطوبولوجيا لتستخلص منه علوم أوكليرية الخاصة غير اقليدية أو الاقليدية euclidiennes والعودة من ثم إلى فريق التقلات) . هذا هو التعبير الجذري من

الهندسة الصورية إلى نظام كامل من التحويلات الذي تمكن من عرضه كلابن F. Klein في كتابه الرائع « برنامج ارلنغن » ، وهذا بشكل مثلاً أولاً عما يمكن أن نسميه ، والفضل لبنية الفريق ، انتصاراً إيجابياً للبنوية .

٦ - البنيات الأم . - ولكن ذلك لا يمكن أن يُعَدَّ إلا نصراً جزئياً لأن الميزة الأساسية لما أسماه بالمدرسة البنوية في الرياضيات أي مدرسة بورباكي ، هي انها كانت تسمى لالحساق الرياضيات بفكرة البنية . كانت الرياضيات التقليدية مكونة من مجموعة من الفصول غير المتجانسة (الجبر - نظرية الأعداد - التحليل - الهندسة - حساب الاحتمالات ... الخ) التي يتعلق كل واحد منها بميدان محدود وبأشياء او كائنات محددة بواسطة خواصها الجوهرية . وبما أن بنية الفريق ، استطاعت أن تطبق على العناصر الأكثر شمولاً ، وليس على العمليات الجبرية فقط ، وجدت مجموعة البورباكي^(١) نفسها مضطرة الى تعميم بحث البنية حسب مبدأ مطابق في التجريد .

فاذا سمينا « عناصر » الأشياء المجردة أصلاً كالأعداد او الانتقالات او الاسقاطات ... الخ (ونرى هنا انه يوجد نتائج عمليات وحتى عمليات متكاملة بنفسها) لا يبقى الفريق مبرراً بطبيعة عناصره بل يتعداها بتجريد جديد ذي درجة أعلى ، وهذا التجريد يقوم على أن نستخلص بعض التحويلات المشتركة والتي نستطيع أن نخضع لها أية نوعية من العناصر ، وبالدات ، كانت أسلوب مجموعة بورباكي يقوم على استخلاص البنيات الأكثر عمومية بواسطة طريقة تضمنها في تشاكلات Isomorphism ، وعلى اخضاع العناصر الرياضية المختلفة الأنواع لها ، آخذين بعين الاعتبار عدم خصوصية الميدان الذي منه نستقي الأعداد ، وصارفين النظر كلياً عن الطبيعة الخاصة لهذه الأعداد . وترتكز نقطة الانطلاق اذاً لمشروع كهذا على نوع من الاستقراء ذلك اننا لم نستنتج أولاً العدد او شكل البنيات

(١) مجموعة البورباكي : اسم مستعار لمجموعة رياضيين فرنسيين قاموا بأعمال كثيرة مشتركة .

الأساسية التي نبحث عنها . هذه الطريقة أدت إلى اكتشاف « البنيات الأم » الثلاث التي تشكل المصادر لكل البنيات الأخرى والمتعمدة التخليص حكماً فيها بينها (يأتي للمدد ثلاثة نتيجة تحليل تراجمي وليس نتيجة بناء أولي) .

يوجد أولاً « البنيات الجبرية » وبسببها الفريق ، تشمل جميع المشتقات المستخلصة منه .

تتميز « البنيات الجبرية » بوجود عمليات مباشرة وعكسية بمعنى المعكوسية بالتفي (إذا كانت ع العملية وعكسها ع-١ عندئذ : ع-١ × ع = صفر) . ومن ثم يمكننا أن نفرق « بنيات التنظيم » التي تخص العلاقات والتي بسببها هو « الشبكة » أو التشابك ، أي بنية مقارنة عموميتها بعمومية الفريق ، والتي درسها ديد كايند بيركوف سابقاً . يجمع التشابك عناصره بواسطة علاقات هي « يلي » و « يسبق » ، ويحتوي على عنصرين الحد الأعلى (أقرب العناصر المتتابعة) والحد الأدنى (أبعد العناصر السابقة) تطبق الشبكة كالفريق على عدد لا بأس به من الحالات (مثلاً على مجموعة الأجزاء التي تنتمي إلى مجموعة معينة)^(١) أو ما يسمى بـ Simplexe أو على فريق وفريق فرعي . أما الشكل العام لمعكوسية الشبكة فلا يعود العكس بل المقابلة بالمثل ، مثلاً : س × ش تسبق ص + ش تتحول إلى ص + ش تلي س × ش حين تستبدل الشارات (×) و (+) والعلاقات « تلي » و « تسبق » . وأخيراً يمكننا أن نقول أن طبيعة البنيات الأم الثلاث هي طبيعة طوبولوجية تركز على مفاهيم الحوار والاستمرار والحد .

بعدما حددنا وميزنا هذه البنيات الأساسية نحصل على جميع البنيات الأخرى ضمن سياقين اثنين : إما بواسطة المزج ، وذلك عندما تخضع مجموعة عناصر إلى بنيتين في نفس الوقت (مثلاً الطوبولوجيا الجبرية) أو بالتمييز أي فسارضين

(١) إذا اعتبرنا المجموعة م مؤلفة من س جزء نحصل على مجموعة هذه الاجزاء ن إذا أخذنا الاجزاء واحداً واحداً ، اثنان اثنان ... الخ .

مسلات محددة لتعريف البنيات الفرعية . (مثلاً الفريق الهندسي المشتق على أنه فريق فرعي والمتداخل بالتوالي) (مثلاً على ذلك الفرقات الهندسية المشتقة على أنها تحت فرقات والمتداخلة بالتوالي من فريق الـ Homéomorphie الطوبولوجي) مدخلين في ذلك المحافظة على الخطوط ثم المتوازيات ثم الزوايا (راجع ه) .

يمكننا أن نمر أيضاً من بنيات أقوى إلى بنيات أضعف مثلاً على ذلك شبه الفريق الترتيبي والذي لا يحتوي عنصراً محايداً ولا عنصراً عكسياً (الأعداد الطبيعية أكثر من صفر) .

ولكي ندمج جميع هذه المظاهر بعضها ببعض ولنساعد على توضيح ماهية المعنى العام للبنيات يبدو ضرورياً أن نتساءل هل إن أسس هذه « الهندسة المعمارية الرياضية » (الكلمة لبورباكي) تقدم ميزة « طبيعية » أم أنها تبقى في حيز الأوليات الشكلية . ونعني هنا بكلمة طبيعية ما نعلمه حين نستعمل كلمة أعداد طبيعية لكي نشير إلى الأعداد الصحيحة الموجبة والتي اكتُشِفَتْ قبل أن تُستعمل في الرياضيات والتي أُلِفَتْ بواسطة عمليات مستقاة من التجربة اليومية كصلة المقابلة النظرية المستعملة عند المجتمعات البدائية في التبادل : واحد مقابل واحد ، أو في لعب الأطفال وذلك آلاف السنين قبل أن يستعملها كانطور لتأليف العدد الترتيبي الأول عبر النهائي Premier Cardinal transfini . ومن المدهش الملاحظة أن أولى العمليات التي يستعملها الطفل في طور نموه ، والتي تشتق مباشرة من تنسيقات عامة لأعماله المرتكزة على الأشياء ، يمكن أن تقسم إلى ثلاثة فئات كبيرة . الأولى حسباً تنتهج مكموسيتها : بالعكس كما في البنيات الجبرية (بشكل خاص في حالة بنيات التصنيف وبنيات الأعداد) أو بالتبادل كما في بنيات التنظيم (في الحالة الخاصة Sériations والصلات Sériales) والثانية أن المجموعات بدل أن تركز على المشابهات أو الفارقات تنتهج قوانين التقارب والتتابع والحدود ، الشيء الذي يشكل بنيات طوبولوجية جزئية (المعتبرة من

وجهة نظر علم النفس الأصلي سابقة للبنىات المادية والإسقاطية بعكس التتابع التاريخي للهندسات وطبقاً لتنظيم التبعية النظرية (١) .

يبدو إذاً أن هذه الأحداث تشير إلى أن البنىات الأم، التي وضعتها مجموعة بورباكي، توافق، وبشكل بدعي وطبيعي، أن لم نقل ركيك، وبشكل بعيد عن العمومية وعن التعميد الممكن أن ترتديه على المستوى النظري تنسيقات ضرورية، ليس مطلقاً ذكراً منذ الأطوار الأولى لنشوءه .

وبالفعل ليس من الصعب أن نبين أن العمليات الأولى التي نكللنا عنها نتيج فعلاً تنسيقات حسية محرّكة هي نفسها وحيث تحتوي الانفصال التي تستعين بأدوات عند الطفل كما عند الفرد على بنىات بشكل أكيد (راجع الفصل ٤) .

ولكن قبل أن نستخلص ما تعنيه هذه الملاحظات من الوجهة المنطقية، لنذكر أن البنىوية عند مجموعة البورباكي هي في طور التحول تحت تأثير تيارات من التعميد التكلم عنه لأنه يبين بشكل جيد أسلوب اكتشاف أن لم نقل تكون البنىات الجديدة . نعتي هنا اختراع الفئات (ماك لين وايلنبرغ) أي اختراع طبقة عناصر تحتوي أيضاً على الوظائف التي تحملها هذه العناصر والمرافقة إذاً Morphisme .

وبالفعل فإن المفهوم الحالي للتابع هو صلة تطبيق مجموعة على مجموعة أخرى أو على المجموعة نفسها وتؤدي هكذا إلى بناء جميع أنواع التشكلات Isomorphisme أو Morphisme وهذا يعني أنه إذا ركزنا على التتابع، لا تعود الفئات تتمحور على البنىات الأم ولكن على الطريقة العلاقية التي تنبمها والتي ساعدت على استخلاص هذه الفئات . من هنا نستطيع أن نعتبر البنية الجديدة مستخلصة ليس من « الموجودات êtres » التي توصلت إليها العمليات السابقة بل من العمليات نفسها والمعتبرة كسياقات « مكونة » . وهكذا تبدو مبررة نظرة بايرت إلى الفرق على أنها جهود لالتقاط عمليات الرياضي أكثر مما تكون مجهوداً لالتقاط الرياضيات .

هذا مثل آخر عن « التجريد المنعكس » الذي تكلفنا عنه والذي لا يستخلص مادته من الأشياء بل من العمليات الممارسة عليها (حتى عندما كانت الأشياء السابقة مجرد نتيجة لهذا التجريد) ؛ وتبدو هذه الأحداث ثينة حقاً فيما يتعلق بطبيعتها وأسلوب بناء البنيات .

٧ - البنيات المنطقية . - يبدو المنطق للوهلة الأولى وكأنه يشكل ميداناً متميزاً للبنيات لأنه يتم بأشكال المعرفة وليس بمحتوياتها . وأكثر من ذلك عندما نثير مسألة (غير منظورة جيداً عند المنطقيين) المنطق الطبيعي (بالمعنى الذي أوضحناه في الفقرة ٦) للأعداد الطبيعية ، نلاحظ فوراً أن المحتويات التي تستعملها الأشكال المنطقية لا تزال تحتوي هي أيضاً على أشكال موجهة باتجاه الأشكال المنطقية . وأشكال المحتويات هذه تشتمل على محتويات أقل اعداداً ولكنها تمتلك هي الأخرى أشكالاً، وهكذا دواليك يشكل كل عنصر احتواءً للعنصر الأعلى منه وشكلاً للعنصر الأدنى، ولكن إذا كان تداخل الأشكال ونسبية الأشكال والمحتويات مفيداً جداً لنظرية البنيوية فإنه لا يهم المنطق إلا بشكل غير مباشر فيما يتعلق بمسألة الحدود ومسألة التقييد (راجع فقرة ٨) .

ويأخذ المنطق الرمزي أو الرياضي (الأكثر شهرة اليوم) مكاناً غير عدد في هذه الخطوة التصاعدية ولكن مع النية الصارمة بأن نجعل منه ابتداءً مطلقاً، وحكمة هذه النية هي أنها ممكنة التحقيق بفضل طريقة الأولويات. وبالفعل، يكفي أن نختار كنقطة انطلاق، عدداً من المفاهيم المتبعة غير قابلة للتحديد بشكل تساهم به في تحديد المفاهيم الأخرى، واقتراضات معتبرة غير قابلة للبرهان (نسبة للنظام المختار لأن اختيارها عشوائي) تساهم هي أيضاً في عملية البرهان .

ولكن يجب على هذه المفاهيم الأولية أن تكون كافية متطابقة ومحصورة بقدر المستطاع وبكلمة أخرى ألا تكون مسببة . ويكفي بمدئذ ان نعطي أنفسنا قواعد البناء ، على شكل منهج عملي ، ويقدر التقييد عندئذ نظاماً

يكتفي بذاته ومن دون ان يستعين بمحدد خارجي 'يحتل نقطة انطلاقه معنى مطلقاً : تبقى بالطبع مسألة الحدود العليا للتعقيد والمسألة العلمية لمعرفة ما تغطيه المعطيات غير المحددة وغير المبرهنة ولكن من وجهة النظر الشكلية التي ينطلق منها المنطقي . نجد هنا المثال الوحيد بسلا شك لاستقلال جذري بمعنى ضبط داخلي محض أي على الانتظام الذاتي التام .

يمكننا اذاً ان ندعم من وجهة نظر أوسع ، الفكرة القائلة ان كل نظام منطقي (عدد هذه الأنظمة لامتناهي) يشكل بنيه لأنه يحتوي على ثلاث ميزات :
ميزة الجملة ، ميزة التحويلات وميزة الضبط الذاتي .

ولكننا نفي بهذا من جهة أخرى ، البنيات الخاصة بها ، وسواء أذكرناه أم لم نذكره فإن الهدف الباطني للبنىوية هو الوصول الى البنيات الطبيعية . هذا التصور السيء السمعة والغامض بعض الشيء يغطي امسا فكرة التحذير العميق في الطبيعة الانسانية (مع خشية الرجوع الى الأولية) واما بالعكس فكرة وجود مطلق مستقل بمعنى ما عن الطبيعة الانسانية التي يجب ان تتكيف فقط (يخشى من هذا المعنى الثاني الرجوع الى الجواهر السامية) ، ونعني من جهة أخرى (وهذا أشد خطورة) ان أي نظام في المنطق يشكل جملة منغلقة فسيا يتعلق بمجموعة النظريات التي يبرهنها ، ولكن ذلك لا يشكل إلا جملة نسبية لأن النظام يفتتح من الأعلى فيما يتعلق بالنظريات التي يبرهنها (بالأخص النظريات غير المقررة من جراء حدود التعقيد) ويفتح من الأسفل لأن مفاهيم وفرضيات الانطلاق تغطي عالماً من العناصر الضمنية .

لهذه المسألة الأخيرة بشكل خاص اهتمت البنىوية التي يمكن تسميتها بالمنطقية صاحبة النية الواضحة بالبحث عما يمكن ان يوجد تحت ، عمليات الانطلاق المقننة بالأوليات والذي وجدناه ، بشكل قطعاً مجموعة من البنيات الصحيحة والمقارنة ليس فقط بالبنيات الكبيرة التي يستعملها الرياضيون والتي تفرض حدسياً

بشكل مستقل عن تعييدها بل تتطابق مع بعض هذه البنيات وتدخل عندئذ فيما نسميه اليوم الجبر العام والذي يشكل نظرية للبنيات .

من المثير للدهشة بشكل خاص ، هو أن منطق «بول» أحد أكبر مؤسسي المنطق الرمزي في القرن التاسع عشر يشكل جبراً يدعى جبر بول . هذا الجبر الذي يغطي بشكله التقليدي منطق الطبقات ومنطق الافتراضات ، يتناسب من ناحية أخرى مع علم الحساب (Moducos) أي علم يحتوي على قيمتين اثنتين فقط : صفر وواحد . والحالة هذه يمكننا أن نستخلص من هذا الجبر بنية «شبكة» (راجع فقرة ٦) حين نضيف إلى الخواص المشتركة لجميع الشبكات الميزات الآتية : ميزة الاستقراق distributivité ، وميزة احتواء عنصر أقصى وعنصر أدنى ، وخساسة الميزة للتكاملية (يحتوي بذلك كل عنصر على عكسه أو على نقيضه) . عندما يمكننا أن نتكلم عن «شبكة بول» ، نسمح لنا من ناحية أخرى كل واحدة من العمليتين «البوليتين» ، عملية الفصل الكلي (أو (م) أو (ش) وليس الاثنين معاً ، وعملية التماثل بتشكيل كل فريق على حدة ، وكل واحد من هذه الفرق يمكن أن يتحول إلى حلقة تبادلية ^(١) ، نجد بذلك في المنطق البنيتين الرئيسيتين المستعملتين غالباً في الرياضيات ، وفوق ذلك يمكننا أن نستخلص فريقاً أكثر عموماً كحالة خاصة لفريق الرباعية عند كلين groupe de quaternality de Klein .

لنأخذ عملية كمالية لتوافق $S \equiv S$: إذا عكسنا هذه العملية (ن) نحصل على $S \times S$ (مما ينقض التوافق) إذا قلبنا طرفي التوافق أو بشكل أبسط إذا حافظنا على شكلها ، ولكن مع الافتراضات المنقوضة $S \equiv S$ ، نحصل على البديل (ب) مما يؤدي إلى $S \equiv S$. لنأخذ المعادلة $S \equiv S$ هذه المعادلة يمكن أن تكتب :

(١) راجع ج - ب - غرايز المنطق ص ٢٧٧ في كتاب المنطق والمعرفة العملية « بياجيه » .
Encyclopédie de la pléiade .

من $x \times \overline{sh} \vee \overline{sh} \times \overline{sh} \vee \overline{sh} \times \overline{sh}$ (إذا استبدلنا الآن في هذه المعادلة الجديدة $\vee$ و (x) نحصل على الارتباط المتبادل (أ) المتعلق به للمعادلة $sh < sh$ أي نحصل على $sh \times \overline{sh}$. وأخيراً إذا حافظنا على المعادلة $sh = sh$ بدون تغيير نحصل على التحويل المطابق والحالة هذه نحصل بطريقة تبادلية على المعادلة $n \times b = a$ أو $n \times a = b$ أو $a \times b = n$ أو $n \times b \times a = t$.

نحصل هنا على فريق يحتوي أربعة تحويلات تماماً بحيث تمتنع عمليات منطق الافتراضات المزدوجة bivalente (سواء أكانت هذه الافتراضات مزدوجة أو مثلثة ... الخ) من الأمثلة بمقدار ما يمكننا أن نشكل من الرباعيات (quaternes) بواسطة العناصر الموجودة داخل « مجموعة أجزاء » الفريق ذي الأربع تحويلات^(١) نجد بالنسبة إلى بعض هذه الرباعيات معادلات خاصة :

(١) هذا الفريق a, n, r, t الذي تكلمنا عنه في عام ١٩٤٩ في (كتاب المنطق) استبجح تعليقاً من مارك باروت (الأرملة الحديثة تشرين ١٩٦٩ عدد ٢٤٦ مسائل البليوية) مما يؤدي إلى سوء تفاهم . إذا دعينا مفهوم العمليات a, n, b, t وحولناه إلى شكل أبسط نجد أن في المعادلة $(A \ B) \times m \times q$ حيث يمكننا أن نبسط التحويلات الثلاثة الباقية :

- ١ - تغيير A changer A
- ٢ - تغيير B changer B
- ٣ - تغيير m و q بنفس الوقت .

هذا لن نكون قد حققنا سوى تماثلات بينها يفترض الفريق a, n, b, t بالعكس ليس الحالات الأربعة في أية لائحة كعناصر :

$$\begin{array}{ccc} m \times q = m \times \overline{q} & , & m \times q \text{ و } m \times \overline{q} \\ \overline{A} \ \overline{B} \text{ et } \overline{A} \ B & & A \ \overline{B} \quad A \ B \end{array}$$

واستنتجنا عشر تنسيقاً للوجود في مجموعة تحزنته « أو الـ ٢٥٦٠ تنسيقاً للافتراضات الثلاثة » هذا لا يظهر الفريق نفسياً إلا في مستوى ما قبل المرافعة . بينما تظهر الاستاذج السهبة الكهنة الفريق لتحوي أربعة عناصر والتي ذكرها باروت Barbut سهبة للفهم في مرحلة السنوات السبع أو الثمانية الأولى .

ت = ب أو ن - أ أو ن = ب ولكن لا نحصل بالطبع أبداً على المعادلة
ت = ن . يبدو واضحاً بالاجمال أنه يوجد « بنيات » بكل ما للكلمة من معنى
في علم المنطق وتزداد أهميتها لنظرية البنيوية بمقدار ما تتبع تكوين علم النفس
في تطور الفكر الطبيعي ، توجد إذاً هنا مشكلة من الأفضل الرجوع إليها .

٨ - الحدود البديلة للتعميد الاستنباطي . - ولكن التفكير في البنيات
المنطقية يقدم فائدة أخرى للبنيوية بشكل عام . تبدو هذه الفائدة في تبيان
بماذا لا تختلط البنيوية مع تعميدها وبمساذا تنتج هكذا بالنسبة لحقيقة طبيعية
ستجهد في تبيان معناها شيئاً فشيئاً . في عام ١٩٣١ قام كيرت غودل باكتشاف
أحدث دويماً ضخماً لاثباته الآراء السائدة التي كانت تهدف الى ضم الرياضيات
لعلم المنطق ومن ثم ضمها للتعميد الصافي ، ولأن هذا الاكتشاف فرض على هذه
الآراء حدوداً لا شك متحركة او تبديلية ولكنها موجودة في أي وقت كان من
عملية البناء . فقد برهن غودل بالفعل ان مطلق نظرية غنية وممتسكة ، كعلم
الحساب البسيط ، لا يمكن ان تتوصل بوسائلها الخاصة او بوسائل أخرى
« أضعف » (أضعف في حالة منطق رايتييد وراسل أي منطق « المبدأ الرياضي »)
الى برهان عدم التناقض الخاص بها . وبالفعل اذا تمسكت بأدواتها الخاصة
تصل الى افتراضات غير مقررّة ولا تصل بالتالي الى الاشباع . وبالعكس فقد
وجد فيما بعد ان هذه البراهين غير المحققة في صميم نظرية الانطلاق تعدو بمكنة
اذا استعملنا وسائل أقوى . هذا ما حصل عليه جنترن في حساب البسيط حين
اعتمد على حساب كانطور غير النهائي .

ولكن علم الحساب هذا لا يكفي لتكلمة نظامه الخاص ولكي تتوصل الى
ذلك يجب ان نلجأ الى نظريات من نوع أسمى . والفائدة الأولى التي نجنيها من
هذه الملاحظات هي انها تدخل في مفهوم كبر القوة او الضعف التقريبيين للبنيات

في ميدان محدود حيث يمكن مقارنتها. وكما أوحى تدرج الخواص بالتطور، في علم الأحياء ، يوحى التدرج الذي قدمناه بفكرة كاملة للبناء. ويبدو بالفعل معقولاً أن تستعمل بنية ضعيفة وسائل أكثر بساطة ، وأن يتناسب مع القوة المتصاعدة ، أدوات معقدة الأعداد . والحالة أن هذه الفكرة للبناء ليست مجرد تصور فكري . ويسمى التعلم الأساسي الثاني في اكتشافات غودل ، إلى فرض هذه الفكرة بطريقة مباشرة لأننا إذا أردنا إكمال نظرية ما، عن طريق برهانها، وليس عن طريق عدم تناقضها لا يكفي أن نحلل الافتراضات المبدئية بل يصبح ضرورياً أن نبني الفكرة التالية .

كان يكفينا حتى الآن أن نعتبر أن النظريات تشكل هرمًا جيلًا ، يرسو على قاعدة مكثفة بنفسها ، ويكون الطابق السفلي هو الطابق الأكثر صلابة لأنه مصنوع من الأدوات الأكثر بساطة ، ولكن ، إذا كانت البساطة دليل ضعف وإذا توجب أن نبني طابقاً من أجل تدعيم الطابق الذي يسبقه ، يبدو عندئذ أن تماسك الهرم أصبح متعلقاً بقمته . وهذه القمة الغير مكتملة بنفسها يجب أن ترفع بدون انقطاع .

من هنا يجب أن نقلب عندئذ هذه الصورة الهرمية وأن نستعير منها ، بالتحديد، بصورة لولبية ، تتوسع دوائرها كلما صعدت . وبالفعل تصبح عندئذ فكرة البنية المعتبرة كنظام تحويلات مرتبطة ارتباطاً شديداً بينائية التكون المتصل . وهذه الحالة فإن حجة هذه الظروف تبدو سهلة بشكل كاف ويمكننا أن نصل إلى استخلاص غودل من النتائج التي توصل إليها اعتبارات هامة بما يخص حدود التعميد ، ولقد أمكن برهان وجود مستويات مختلفة من المعارف نصف الشكلية ونصف الحدسية أو من المعارف التقريبية على درجات متنوعة ، وذلك بالإضافة إلى المستويات الشكلية . وهذه المستويات تنتظر إذا أمكننا القول دورها من التعميد .

تبدو إذا حدود التقعيد متحركة وعوضية vicariantes وليست منفصلة نهائياً كالأسوار المحددة لمطلق امبراطورية، وفي هذا المجال اقترح لادريير، تفسيراً حازقاً يقول فيه : « لا يمكننا ان نهيمن على جميع العمليات الفكرية دفعة واحدة »^(١)، وهذا الاقتراح يبدو تقريباً أولياً صحيحاً، ولكن نجد من ناحية أولى، ان عدد العمليات الممكنة في فكرنا ليس محدوداً بشكل نهائي، ومن ناحية أخرى ان قدرتنا على الهيمنة الفكرية تتغير باستمرار مع النمو الفكري، حتى غدا من الممكن توسيعها .

وبالعكس فإذا عدنا الى نسبة الأشكال والمحتويات التي ذكرنا بها في الفقرة (٧) ، تمسك عندئذ حدود التقعيد بنفس الشكل كشكل، والمحتوى كمحتوى . ويلعب كل عنصر، من الأفعال الحركية الحسية الى العمليات (او من هذه الى النظريات...) بنفس الوقت، دور الشكل بالنسبة للمحتويات ودور المحتوى بالنسبة للأشكال العليا . وهكذا فان الحساب البسيط « يكون » شكلاً « لا يشك به ولكنه يصبح محتوى » في الحساب عبر النهائي (بمثابة قوة معدودة) . والنتيجة ان التقعيد الممكن لمحتوى معين يبقى محدوداً تبعاً لطبيعة هذا المحتوى .

ولا يوصلنا تقعيد « المنطق الطبيعي » الى بعيد بالرغم من ان هذا المنطق يكون شكلاً بالنسبة الى الأفعال الحسية . بينما يوصلنا تقعيد « الرياضيات الحدسية » الى أبعد بكثير ، بالرغم أنه يعد لها لكي يستطيع ان يعالجها شكلياً .

والحالة اننا اذا وجدنا أشكالا عند جميع طبقات التصرف الانساني وحتى التصورات الخيالية الحسية المحركة وعند حالاتها الخاصة من التصورات الخيالية المدركة... فهل يمكننا ان نستنتج ان مطلق شيء يشكل « بنية » ونتهي عرضنا هاهنا . ذلك ممكن وفقاً لأحد المعاني ، ولكن بمعنى ان كل شيء ممكن البناء

(١) ديالكتيكا Dialectica . التاسع . ١٩٦٠ . ملحق ٢٢١ .

structurability ولكن البنية بما هي نظام تحويلات منضبط ذاتياً ، لا تطابق مع أي شكل : يشكل كوم من الحجارة بالنسبة إلينا شكلاً (لأنه يوجد حسب طريقة غيستالت أشكالاً رديئة كما يوجد أشكالاً جيدة ، فقرة ١١ ، ولكن هذا الكوم لا يمكن ان يصبح بنية إلا اذا أعطينا أنفسنا نظرية مدققة ، تساهم في ادخال النظام الكامل لحركاتها غير الحقيقية .

وهذا يؤدي بنا الى الفيزياء .

البنيات الفيزيائية والبيولوجية

٩ - البنيات الفيزيائية ومبدأ السببية . - بما ان البنيوية هي الهيئة النظرية التي جددت علوم الانسان والتي لا تزال تلهم حركات العلوم الطبيعية ، كان من المهم أن نبدأ بفحص ما يعنيه هذا المفهوم في الرياضيات وفي المنطق . ولكن يمكن ان نتساءل أيضاً عما يعنيه في الفيزياء ؟ وذلك لأننا لا نعلم مبدئياً اذا كانت البنيات تتعلق بالانسان او بالطبيعة او بالاثنتين معاً ، ولأن الربط بين الاثنين يجب ان يُبحث عنه في ميدان التفسير الانساني لطواهر الطبيعة . كان المثال العلمي للفيزيائي ولمدة طويلة يرتكز على قياس الظواهر وعلى إثبات القوانين الكمية وعلى تفسير القوانين بالرجوع الى مفاهيم كمفاهيم التسارع ، ومعامل الكثافة ، والعمل ، والطاقة ، يتحدد الواحد منها تبعاً للآخر بطريقة تصون مبادئ الحفظ على تماسكها .

لهذا اذا تكلمنا عن البنيات في هذا الطور التقليدي من الفيزياء ، نكون قد عطينا كبرى النظريات التي تنضبط في داخلها العلاقات في نظام علائقي ، كما في نظرية التصور الذاتي ، ونظرية تساوي الفعل ورد الفعل ، والنظرية التي تعتبر القوة كنتيجة لمعامل الكثافة والتسارع عند نيوتن ، او كما في نظرية تبادل السياقات الكهربائية والمغناطيسية عند ماكسويل .

ولكن منذ ترعرع « فيزياء المبادئ » « physique des principes » وتوسع البحث الى مستويات قصوى ، علماً ودنياً في سلم الظواهر ، ومنذ انتقالات

الرؤى غير المتوقعة كإلحاق علم الحيل بالكهرطيس *électromagnétisme* نشهد
تثميناً مضطرباً لفكرة البنية .

وغدت نظرية القياس، النقطة الحساسة في الفيزياء المعاصرة حتى بات البحث
عن البنية يسبق القياس . وأصبحت البنية 'تفهم' على أنها مجموعة حالات
وتحويلات، مكتة يأخذ في داخلها النظام الحقيقي المدروس موقفاً معيناً ويُفسر
هذا الموقع تبعاً لمجموع الممكنات . والمسألة الأساسية التي يثيرها هذا التطور
للفيزياء في البنيوية، تصبح عندئذ مسألة طبيعة السببية وعلى وجه التحديد مسألة
العلاقات بين البنيات المنطقية - الرياضية المستعملة في التفسير السببي للقوانين
والبنيات المفترضة من الواقع . إذا اعتمدنا على نظرية الوضعية *positivisme* في
تفسير الرياضيات، على أنها مجرد أسلوب بسيط، لما عاد هناك بالتأكيد مشكلة،
ولاقتصر العلم بمحد ذاته على مجرد وصف . ولكن ما إن نعرف بوجود البنيات
المنطقية أو الرياضية كنظام تحويلات إلا ويطلب إثبات المسألة التالية :
هل إن هذه التحويلات الشكلية بعينها هي التي 'تعلن' منفردة بالتغيرات
والحفاظات الحقيقية المشاهدة في الظواهر . أو بالعكس إن البنيات المنطقية لا
تشكل إلا انعكاساً مستتبناً في داخل عقلنا للإواليات اللازمة للسببية الفيزيائية
الموضوعية والمستقلة عنا، أو أخيراً هل يوجد، بين هذه البنيات الخارجية والبنيات
المتعلقة بعملياتنا، رابط دائم لا يطابقها ورابط نجده في مجرى عملنا مجسداً
تجسداً حسيّاً في ميادين متوسطة كميادين البنيات البيولوجية أو ميادين أفعالنا
الحسية المحركة .

في مطلع هذا القرن اتجهت نظريتان من أكبر نظريات السببية إلى الحلتين
الأولتين من هذه الحلول الثلاث . يصور ميرسون *Meyerson* السببية كمفهوم
أولي لأنها تقتصر على تطابق المتنوع، ويحدد برونشفيك *L. Brunschvicg* السببية
بالقاعدة « يوجد كون » (بالمفهوم النسبي) ، ولكن الصعوبة الواضحة التي يحلبها
الأول من هذين النظامين، هي أنه لا يفسر إلا الحفاظات ويبدد التحويلات، مع

أنها ضرورية بالنسبة للسببية في ميدان « اللاعقلانية » . أما النظام الثاني فننتيجته إلحاق البنيات العملية بالسببية واعتبار الحساب كعلم « فيزيائي - رياضي » (بالرغم عن كل ما قيل حول المثالية البرونشفيكية ^(١)) . ولكن يبقى أن تخضع هذه الفرضية إلى تدقيق نفسي - بيولوجي psychobiologique وعندما نعود إلى الفيزياء نجد أمامنا التأكيد التالي : أن الاستنتاج الرياضي المنطقي لمجموعة من القوانين لا يكفي لتفسير هذه القوانين ما دام هذا الاستنتاج استنتاجاً شكلياً : يفترض التفسير وجود كائنات أو « أشياء » تحت الظواهر ووجود تأثيرات واضحة لهذه الكائنات على بعضها البعض . والمثير للدهشة هو أن هذه التأثيرات تشبه في بعض الحالات وإلى حد كبير بعض العمليات . وعلى وجه التحديد بمقدار ما توجد صلة بين التأثيرات والعمليات بمقدار ما نشعر أننا « نفهم » ولكن الفهم والتفسير لا يقتصر إطلاقاً على تطبيق عملياتنا على الواقع ولا يقتصر على ملاحظة أن هذا الواقع « ينسجم » لعملياتنا . أن أي تطبيق بسيط يبقى داخلياً على مستوى القوانين ، ولكي نتخطاه ونصل إلى الأسباب يُطلب منا أكثر من ذلك : من الضروري إسناد هذه العمليات إلى الأشياء المعتبرة كأشياء وأن نتصور أن هذه الأخيرة تشكل رمزاً حسابياً opérateur ^(٢) بمحد ذاتها .

عندئذ ، وعندئذ فقط ، يمكننا أن نتكلم عن « بنية » سببية . هذه البنية هي المجموعة « الموضوعية » لهذه الرموز بما يخص علاقاتها المشتركة للعقلية . من وجهة النظر هذه يبدو الاتفاق الدائم بين الحقائق الفيزيائية والأدوات الرياضية المستعملة لوصفها مثيراً للدهشة ، لأن هذه الأدوات غالباً ما تكون قد وجدت قبل استعمالها ، وعندما بنيت نتيجة لحدث جديد ، لم تُستخلص من هذا الحدث الفيزيائي بل أعدت بطريقة استنتاجية حتى المشاهدة . والحالة أن هذا الاتفاق

(١) مفهوم شائع الاستعمال في الفيزياء الجزئية وحيث تستبدل الكميات المشاهدة بمرور مترابطة . ولكن هذا المفهوم يتم ليشمل المعنى الذي نعطيه إياه هنا .

لا يشكل اتفاق لغة مع الأشياء الممينة فحسب كما تعتقده « النظرية الوضعية » ، لأنه ليس من عادة اللغات أن تحكي مسبقاً عن الأحداث التي تصفها بل تشكل اتفاقاً للعمليات الانسانية مع عمليات الأشياء الرموز *objets - opérateurs* ، وبالتالي يشكل هذا الاتفاق تناغماً بين هذا الرمز الخاص (او هذا الصانع للعمليات العديدة) ، الذي هو الانسان يجسده ويعقله ، وبين هذه الرموز غير المحصية التي تشكل الأشياء الفيزيائية على جميع المستويات . نجد هنا اذن إما البرهان الساطع عن هذا التناغم السابق الإثبات بين جواهر الأفراد *monades* المغلفة المصراعين التي كان يحلم بها لايبنتز *Leibnitz* ، وإما اذا كان هذان المصراعان مفتوحين صدفة وليس منطلقين ، أجل مثال على التكييفات البيولوجية المعروفة (أي الفيزيائية - الكيميائية والمعرفية معاً) .

اذا صح ذلك فيما يتعلق بالعمليات بشكل عام فإنه يبقى صحيحاً فيما يتعلق بأئمة « البنيات » العملية . مثلاً على ذلك نعلم جيداً ان بنيات الفريق مستعملة بشكل عام في الفيزياء منذ المستوى الفيزيائي الجزئي *microphysique* وحتى علم الحيل السماوي النسبي *Mécanique céleste relativiste* . والحالة أن هذا الاستعمال ذو فائدة كبرى فيما يتعلق بالصلات بين بنيات الوضوح العملية والبنيات الخارجة والموضوعية .

ضمن هذا الاعتبار يمكننا ان نميز بين ثلاث حالات : نجد بادىء ذي بدء الحالة التي بها يتمتع الفريق بقيمة كشفية *heuristique* بالنسبة للفيزيائي ذلك اذا أخذنا بعين الاعتبار اننا لا نمثل فريق الرباعية *quaternarité PCT* حيث تعني *P* الشغية *parité* (تحويل من شكل خارجي *configuration* الى شكله المقابل في المرآة) وتعني *G* الشحنة *charge* (تحويل من الجزئي *particule* الى مقابل الجزئي *antiparticule*) وتعني *T* عكس معنى الزمن *inversion du sens du temps* . ثم نجد الحالة التي بواسطتها تستنتج التحويلات

من الأعمال المادية للثغثير، الذي يعالج المعاملات او ينسق بين القراءات الممكنة بواسطة أجهزة قياس يلاحظها مراقبون في حالات مختلفة، دون ان تشكل هذه التحويلات سياقات فيزيائية مستقلة عن الفيزيائي .

احدى المجازات فريق لورنتز Lorentz تطابق مع هذه الحالة الثانية عندما تدخل بعض التغييرات على نظام المراجع référentiel ، فتتسق بين وجهتي نظر مراقبين منطلقين بسرعتين مختلفتين ، عندئذ تصبح تحويلات الفريق تحويلات للموضوع، ولكنها ممكنة التحقيق فيزيائياً في بعض الحالات، الشيء الذي يبرهنه الانجاز الثاني لفريق لورنتز عندما تتكلم عن تحويلات حقيقية يمارسها نفس الموضوع على النظام المدروس . يوصلنا هذا الى الحالة الثالثة حيث تتحقق تحويلات الفريق فيزيائياً بصرف النظر عن معالجات المختبر ، او حين تكون هذه التحويلات مهمة من الناحية الفيزيائية، وذلك في الحالة « التقديرية » او الكامنة . وتتملك هذه الحالة بتركيب القوى التي تشكل ، ومعها تفسير حالات توازن القوى ، بنية توضيحية واسعة ترتكز على بنية الفريق . وقد دعم ماكس بلانك ، الى جانب السببية الفاعلة للفكرة التي تخضع الظواهر الفيزيائية بشكل شبه كلي الى مبدأ الفعل « الأدنى » : والحالة ان هذا المبدأ يتعلق « بعلة نهائية » تعمل بالمعكس في المستقبل ، او بتحديد أكبر يتعلق بنهاية معينة ، الشيء الذي يتبعه تسلسل السياقات التي توصل اليه^(١) . ولكن قبل ان نمنع الفوتونات (photons) في داخل الشعاع الضوئي chemin optique الأقصى ، برغم جميع الانكسارات التي تعترضه عند عبور طبقات الجو ، امكانية التعرف كـ « كائنات مجهزة بعقل » بالمزيد الى كوننا منعناها صفة للرموز opérateurs ، يبقى ان نتساءل كيف يتحدد في هذه الحال تكامل فيرما integrale de Fermat الذي يساوي قيمة دنيا بالنسبة الى كل الطرق المجاورة . والحالة اننا نجد هنا مجدداً ، كما في حالة « الأعمال الفرضية » « travaux virtuels »

(١) - Max Planck, «L'image du monde dans la physique moderne»

تفسيراً بواسطة التعديل شيئاً فشيئاً بين جميع التفسيرات الممكنة في جوار الطريق الحقيقي ، ذلك إذا وضعنا الواقع ضمن التحويلات الممكنة . وأخيراً يبدو أكيداً هذا الدور للتحويلات الممكنة في حال التفسيرات الاحتمالية probabilistes : تفسير المبدأ الحراري principe therodynamique بواسطة نفس الاحتمال (أي التصور الحراري entropic) ، يتوجب علينا من جديد تعديد البنية بتركيب مجموع الممكنات لكي نستنتج منها الواقع (لأن الاحتمال هو خارج قسمة عدد الحالات الملائمة على عدد هذه الحالات الممكنة) وذلك بالرغم اننا نعني هنا بلاتبادلية معاكسة لتركيبات الفريق .

يوجد اذاً بالاجمال بنيات فيزيائية مستقلة عنا ولكنها تتناسب مع البنيات العملية حتى في الميزة التي يمكن أن تظهر على أنها خاصة بنشاطات الفكر والتي تتعلق بالممكن والتي تدخل الواقع في نظام الفرضيات système des virtuels . وتطرح هذه الصلة بين البنيات السببية والبنيات العملية والمفهومة في حالة يعتمد فيها التفسير على نماذج مبنية جزئياً بطريقة مصطنعة او في الحالات الخاصة بالفيزياء الجزئية وحيث لا ينفصل تتابع السياقات عن عملية المختبر (من هنا الغاية التي ينشدها اديغتون Eddington الذي يقدر أنه من الطبيعي جداً ان نجد بدون انقطاع أشكالاً للفريق) (تطرح مشكلة عندما تبين التحقيقات العديدة موضوعية البنية الخارجية عنا . ويُقدم التفسير الأكثر سهولة في هذه الحالة على التذكير منذ البدء بأننا نجد السببية في سلوكنا وليس في سلوك الأنا بالمعنى الميتافيزيقي للكلمة عند ماين دو بيران Maine de Biran ، بل في السلوك الحسي المحرك والآلي حيث يكتشف الطفل القفل في الحركة ودور الدفع والمقاومة .

والحالة ان السلوك هو مصدر العمليات ليس لأنه يحتوي هذه العمليات مسبقاً ، كما ليس لأنه يحتوي كل السببية ، بل لأن ارتباطاته العامة تحتوي على بنى جزئية كافية لأن تشكل نقطة انطلاق للتجريدات العاكسة والى البناءات اللاحقة . ولكن ذلك يوصلنا الى البنيات البيولوجية .

١٠ - البنيات العضوية . - يشكل الجسم الحي في نفس الوقت نظاماً فيزيائياً كيميائياً بين الأنظمة الأخرى، ومصدر نشاطات الشخص الذي تدرس انفعالاته . اذا (كما قدمنا في الفقرة ١) كانت البنية نظاماً كاملاً من التحويلات المنضبطة ذاتياً ، يشكل عندئذ الجسم الحي بعبارة prototype للبنيات واذا كما نعرف بنيته بشكل محدد فإنه يمنحنا مفتاح البنيوية نظراً لازدواجية طبيعته كموضوع فيزيائي مركب ومتحرك للتصرف . ولكننا لم نصل بعد الى هذا الحد . فالبنيوية البيولوجية الحقيقية لا تزال بعد في طور التكوين بمسدد قرون من التخفيضية réductionnisme المسهلة او الحيوية vitalisme الشفهية أكثر مما تكون تفسيرية . وهذا الاعتراف الضعيف بالتراجع الذي يقدمه لنا شكل التطوير بواسطة التغييرات المفاجئة والمنسقة بعد ضربه ، والذي لا يزال للأسف على درجة من الاحترام في ميادين عدة . بهذا نكون قد نسينا حدثين أساسيين الأول ان الفيزياء لا تقتصر الجمع التراكمي للمعلومات ، وأن الاكتشافات الجديدة تؤدي بنا الى اعادة صياغة المعلومات أ ، ب ، ج ، ... الخ وتبقى هكذا مجهولات المستقبل س ، م ، ... الخ ، والحدث الثاني هو أن في الفيزياء نفسها تؤدي تجارب التخفيض ، من الكهراطيسية الى الأولية ، تؤدي بعكس التركيبات الجمعية او المطابقة الى تركيبات حيث يفتني الأدنى من الأعلى وحيث يضع التمثيل الماكس assimilation réciproque الذي يستنتج من التركيبات ، في حيز الوجود بنيات المجموع . يمكننا بذلك ان نتظر ، من دون ان نقلق ، حدوث التخفيضات من الحيوي الى الفيزياء كيميائي ، لأنها لن تخفف بالفعل شيئاً بل تحول لصالحها حدي التناسب . وتجارب التخفيض هذه المسهلة والمعاكسة للبنيوية antistructuralistes ، عورضت من قبل النظرية الحيوية بواسطة أفكار الجملة والقصدية finalité الداخلية او الخارجية ... الخ . ولكن هذه الأخيرة لا يمكن أن تعتبر بنيات ما دمنا لم نحسّد الكيفيات السببية والعملية للتحويلات المعنية في داخل النظام . كما أن نظرية « البروز » emergence التي دافع عنها لويدي مورغان Lloyd Morgan وآخرون غيره تقتصر على ملاحظة وجود

الجلات في مختلف المستويات. ولكن القول بأنها « تبرز » في وقت معين لا يرتكز إلا على الإشارة بأن هنالك مسائل . ومن ناحية أخرى ، إذا كانت الحيوية قد شددت على الجسم الحي كموضوع أو كمصدر للموضوع بعكس أوالية الموضوع ، فقد اكتفت دائماً بتصوير الموضوع مستوحى من استنباطات المعنى المشترك أو من العلم الماورائي للأشكال الارسطوطاليسية كما عند دريش Driesch . من المهم هنا الإشارة الى التجربة الأولى للبنوية التفسيرية في البيولوجيا وهي عضوانية برتلانفي L. Von Bertalanffy المستوحاة من أعمال السيكلولوجيا التجريبية في ميدان الصيقات أو البنيات المدركة والحركة . وإذا كانت أعمال هذا المنظر في علم البيولوجيا ذي قيمة لا تناقش نظراً لجهودهما المبذول في تأسيس « نظرية عامة للأنظمة » ، فإن التحسينات الداخلية في الفيزيولوجيا المقارنة وفي علم الأجنة embryologie السببية وفي علم الوراثة génétique ، وفي نظرية التطور وفي علم الأخلاق ... إلخ كانت ذات دلالة بالغة فيما يتعلق بالتوجيه البنيوي الحالي للبيولوجيا .

استعملت الفيزيولوجيا منذ زمن بعيد بتطويرها أعمال كلود برنارد مفهوماً رئيسياً بالنسبة للبنية هو مفهوم الـ homéostasie الذي يعود اكتشافه إلى كانتون ورجوعها إلى توازن دائم للوسط الداخلي وبالتالي إلى ضبطه . هذا التصور يؤدي بنا إلى إبراز فكرة الضبط الذاتي بالنسبة للجسم الحي بكامله . والحالة أن هذا الضبط الذاتي يتعدى بنقاط ثلاث الأشكال الفيزيائية المعروفة للتوازن ، بشكل خاص التعديلات الجزئية عند « انتقالات التوازن » حسب مبدأ لوشاتولييه . نلاحظ أولاً أن ضبط البنية المساند باديء ذي بدء إلى الانتظام الذاتي العام يؤمن نفسه فيما بعد بواسطة أعضاء مميزة عن هذا الانتظام . وهكذا تتبع مختلف عوامل تجريد الدم كما يرى ماركون جان ، تتبع الفرصة لانتظام عفوي قديم نسالياً phylogénétique (على الأرجح منذ الكولنترين) ثم تخضع لمراقبة عضو انتظام أول مع الجهاز الهرموني ، وأخيراً تخضع لمضوئان مع الجهاز العصبي . ثانياً وبالتالي ، تحتوي البنية الحية على عمل مرتبط بعمل

الجسم الحي بمجمله بشكل أنها تشغل وظيفة بالمعنى البيولوجي المحدد بالدور الذي تلعبه البنية التحتية بالنسبة للبنية الكاملة . وأنه لمن الصعب رفض هذه الفكرة في ميدان الحياة ولكننا نجد في الميادين المعرفية مؤلفين يطرحون البنيوية كظرفية مضادة لأية نظرية نفعية fonctionnalisme وهذا بشكل رأياً تجب مناقشته . ثالثاً تعطي البنيات المعنوية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع الميزة النفعية لهذه البنيات مظهر أوجه البنيات الفيزيائية (فقط بالنسبة للفيزيائي) ، هذا المظهر يقضي بالرجوع إلى المعاني هذه المعاني تبدو واضحة بالنسبة للموضوع الحي في التصرف حيث تضع البنيات الفطرية بشكل خاص في عين الاعتبار جميع أنواع « الإشارات الدالة » الوراثية (I.R.M. innate releasing mechanisms) ولكن هذه البنيات تبقى محتواة في كل عمل منذ التفريق البيولوجي المحض بين العادي والشاذ .

مثالاً على ذلك ، في حالة خطر الاختناق عند الولادة يتيح تجدد الدم الفيرمه إلى انتظام عصبي فوري ، ولكن الـ homeostatic لا تحتوي فقط على معنى فيزيولوجي . فمن أهم مكتسبات البنيوية البيولوجية المعاصرة هي أنها تخلت عن صورة الـ génome المعتبرة كتجمع مورقات gènes منمذلة وتخدم النظام حيث لا تلعب المورقات دورها كعازف انفرادي وإنما كأوركسترا كاملة على حد تعبير Dobzhansky ؛ مع وجود مورقات ضابطة بشكل خاص وحيث تنتظم العملية بواسطة عدة مورقات من أجل واحدة ، أو تنتظم العملية بواسطة مورقة واحدة من أجل عدة مييزات . . . الخ ولا تعود عندئذ الوحدة الوراثية تشكل génome منعزلاً بل تشكل « السكان » وذلك ليس مع مجرد خليط بسيط ، بل مع اندماج سلاسل بطريقة تظهر الـ pool homeostatic وراثية الشيء الذي يعني توازناً يريد احتمال البقاء ومبرهنناً بالطريقة التي قدمها دو بهانسكي وسيلسكي ، نخلط عدة سلاسل معروفة في « قفص مكاني » وندرس مستوياتها بعد عدة أجيال . والأفضل من ذلك لا يعود سياق التغير الأساسي تقياراً إحيائياً mutation وإنما إعادة تنظيم وراثي ، الشيء الذي بشكل الأداة الرئيسية لتكون البنيات

الوراثية الجديدة . وفي ميدان الأصل الجنيني embryogenèse شهدت الميول
 للبنىوية، التي تعمل منذ اكتشاف منسقات الانتظامات البليانية والتجددات، على
 أعمال وادنتون Waddington التي أدخلت مفهوم الـ homéorhesis أو
 التوازن الحركي للنمو المتعاقل للانحرافات الممكنة حول créodes أي الطرق
 الضرورية التي يتبعها هذا النحر . والأهم من ذلك أن وادنتون بيّن التفاعل بين
 الوسط والتأليف الوراثي في أثناء النمو (تكون الـ phénotype) ، وركز على
 أن الـ phénotype يشكل جواباً لـ génome بالنسبة لتطلبات الوسط
 والتنسيق يتعلق بهذه الأجوبة وليس بالـ génotype نفسها : من هنا إمكانية
 « التمثيل الوراثي » بواسطة هذه التنسيقات أو تشيبتات الميزات المكتسبة .
 وبشكل عام يرى وادنتون، في العلاقات بين الوسط والجسم الحي، دارة
 إحيائية آلية ينتهي بواسطتها الجسم الحي وسطه، بينما يكيفه هذا الأخير
 ويعتمد مفهوم البنية المنضبطة ذاتياً، الفرد والسكان أنفسهم، لكي يشمل المركب .
 [المتعلق بالسكان milieu phénotype Pool génétique] ويكون هذا التفسير
 أساسياً فيما يتعلق بمعنى التطور .

كما أنه يوجد مؤلفين يعتقدون أن التطور الجنيني كله سابق تكون رافضين
 بذلك مفهوم الأصل المتعاقب epigenèse (التي يعيد إليها وادنتون بالمعكس
 معناها الكامل ، قامت في هذه السنوات الأخيرة نظريات تدعم الفكرة التي
 تقول بأن التطور الكامل كان سابق التحديد بواسطة تركيبات تتركز على
 مركبات الحوامض النووية ADN . نكون بذلك قد حصلنا على الجساح
 الكامل للبنىوية السابقة التكوين للتطور نفسه . وفي تصحيح دور الوسط الذي
 يثير الآن مسائل تجيب عليها التغيرات الداخلية النمو endogene نعيد إلى
 التطور معناه الديالكتيكي بدل أن نرى في ذلك قضاءً أبدياً تصبح أخطاؤه
 وثغراته غير قابلة للتفسير .

هذه الإنجازات للبيولوجيا المعاصرة هي ثمينة بالنسبة للبنىوية بمقدار ما

تمنحه القواعد اللازمة للبنية النفسية الوراثة عندما تشمل النظرية المقارنة للتصرف أو الأثولوجيا . وبالفعل فقد أكدت الأثولوجيا من جهة وجود بنية مركبة للفرائز إلى درجة بقنا معها نتكلم اليوم عن منطق للفرائز ونحلل منها مختلف المستويات التسلسلية وبذلك تشكل الفريزة منطقاً للأعضاء أو أدوات عضوية قبل أن تتشكل أفعال مبرجة وراثياً وأدوات مصنوعة . ومن جهة أخرى ، وهذا لا يقل أهمية ، تميل الأثولوجيا الحالية إلى تبيان أن كل تعليم وكل حفظ لا يقوم إلا بارتكازه على بنيات مسبقة ، ويمكن أن يكون ذلك بنيات الحوامض النووية ARN أو ADN للواد الوراثة . وهكذا فإن الاحتكاك بالتجربة والتغيرات الأكثر عشوائية والمكتسبة تبعاً للوسط الذي بحثت داخله التجريبية عن نموذج لتكوين المعلومات ، أن هذا الاحتكاك لم يرسح إلا بواسطة تمثيلات لبنيات لم تكن كلها فطرية ولا ثابتة ، ولكنها راسخة وأكثر ثبوتاً من التلسات التي تبدأ منها المعرفة التجريبية .

وبكلمة فإن « الجملات » و « الانتظامات الذاتية » البيولوجية مع كونها مادية وذات محتوى فيزياء - كيميائي ، فإنها تفهم العلاقة غير المنفصلة بين البنيات والموضوع ، لأن الجسم الحي هو مصدر هذا الموضوع . إذا كان الإنسان لا يشكل إلا مزقاً « في ترتيب الأشياء » على حد تعبير ميشال فوكو ويشكل منذ أقل من قرنين مجرد ثنية في علقنا ، يبدو مع ذلك مفيداً أن نتذكر أن هذا المزق وهذه الثنية ينبجان عن تصدع واسع لا أساس بتنظيمه ، ويتألف من الحياة بكاملها

١١ - بدايات البنيوية في علم النفس ونظرية « الصيغة » .
 La Théorie de la Gestalt يمكن الاعتبار بأن مفهوم البنية في علم النفس
 قد ظهر منذ أوائل هذا القرن ، عندما تعرض « علم نفس الفكر » من
 مدرسة ورزبرغ للترابطية (في نفس الوقت الذي كان يعترض لها « بينه »
 في فرنسا « وكلا برين » في سويسرا) التي كانت تدعي تفسير كل شيء بترابطات
 ميكانيكية بين عناصر مُسبقة (إحساسات وصور) . وبما يدعو للدهشة ،
 بالإضافة إلى ذلك ، إكتشف أن « بوهلر » قد أبرز منذ تلك الحقبة ،
 بأساليب بحث اختبارية ، الميزتين النسبيتين للبنية التي استعملتها الفينومينولوجيا
 phénoménologie باستمرار منذ ذلك الحين : القصد والمعنى (اللذان يطابقان ،
 من جهة أخرى ، مفاهيم التحويلات مع التنظيم الذاتي ، وهي التي أدرجناها في
 تحديدنا الموضوعي في الفقرة الأولى) . وبالفعل فقد برهن بوهلر ليس فقط بأن
 الحكم هو عمل موحد (الشيء الذي كان يتفق عليه دفعة واحدة جميع
 المناقضين للترابطية) بل ان للفكر درجات من التعقيد المتزايد أطلق عليها
 لفظة bewusstheit (أي فكر مستقل عن الصورة يمطي الماني) ولفظة
 Regclbewusstsein (أي وعي للقاعدة التي تتعلق ببنىات العلاقات . الخ .)
 ولفظة Intention أو عمل مركبي مُوجّه يقصد الشكل الشامل أو النظام من
 التفكير إلى الفعل .

غير انه ، بدلا من أن يتوجه « علم نفس الفكر » في الاتجاه الوظيفي للبحرور

النفسية الوراثية والبيولوجية ، فإنه لم يكتشف بالنهاية سوى بنيات منطقية ، ذلك أنه دفع بتحليله في الميدان المعجز الوحيد في الذكاء الراشد (ومن المعلوم فضلاً عن ذلك ، أن الرجل الراشد الذي يدرسه العالم النفسي يختاره دائماً من بين مساعديه أو تلاميذه) ، في حين أن تحليله للنشأة يؤدي حتماً إلى قلب هذه الألفاظ .

أما الشكل المذهل للبنية النفسية فقد قدمته بلا شك « نظرية الصيغة » التي ولدت سنة ١٩١٢ من أعمال ر . كوهلر و م . ورتيمر المتقاربة ، وامتدادها إلى علم النفس الاجتماعي ، الذي يعود فضلُهُ إلى ك . لفين وإلى تلاميذه^(١) .

تطورت نظرية الصيغة (أو الجشطالت) في جوالفيزيولوجيا ، ولكنها لم تأخذ منها سوى مفهوم تفاعلية أساسية بين الذات والموضوع^(٢) وصممت الالتزام بالاتجاه الطبيعي Naturaliste الذي يعود إلى تكوين كوهلر كفيزيائي وإلى الدور الذي لعبته ، عنده وعند غيره ، نماذج « المجالات » les modèles de « champs » .

وبالإضافة إلى ذلك أثرت هذه النماذج على النظرية تأثيراً يمكن الحكم عليه اليوم ، من نواح ، بأنه مشؤوم ، وذلك رغم كونه كان مثيراً في مبدئه .

والفعل ، يشكل مجال القوى ، كمجال كهربائيسي ، جملة منظمة تماماً ، أي حيث يأخذ تركيب القوى شكلاً معيناً حسب الجهات والشدائد intensités ، غير أن المقصود هنا تركيب "يُحصل تقريباً في الحال" ، وإذا كان يمكن الكلام عن تحويلات ، فإنها شبه فورية . والحال ، أن سرعة التيارات الكهربائية أبطأ بكثير في ميدان الجهاز العصبي وفي « المجالات » حيث تتعدد نقاط الاشتباك العصبي ، (٣ إلى ٩ دورات في الثانية للموجات من ٢ إلى ٥) . وإذا كان سريعاً تنظم

(١) بشأن نبوية لفين Levin ، راجع الفصل السادس .

(٢) زد على ذلك أنه مفهوم بروكسيفي ، وديالكتيكي بشكل عام .

الإدراك الحسي انطلاقاً من الاختصاصات afférences فليس ذلك سبباً لتعميم هذا المثل على جميع الجشطلطات. والحال ان الانشغال بتأثير المجال أدى بكوهلر الى جملة لا يرى العمل الذكي الصحيح إلا في « الفهم الفوري » وكان التحسسات السابقة للمقصد النهائي ليست قبلاً تابعة عن ذكاء . والمسؤول ، بدون شك ، عن الالهمية الضئيلة التي خصها الصيغيون للاعتبارات النفعية والنفسية الوراثة وبالنهاية لنشاطات الذات هو ، بالأخص ، نموذج المجال. هذا لا يمنع الجشطلطات من ان تمثل ، وبالضبط لأنها مفهومة على هذا الشكل ، نوعاً من البنيات يحلو لعدد معين من البنيويين يقوم مثاهم ، الضمني أو المعارف به ، على البحث عن بنيات يمكن لهم اعتبارها خالصة pures لأنهم يريدونها لو تكون بدون تاريخ وبالأحرى بدون نشأة ، بدون وظائف وبدون علاقات مع الذات. ومن السهل بناء جواهر كهذه في الميدان الفلسفي ، حيث الاختراع محرر من أي ضغط ، ولكنه يصعب ايجادها في ميدان الواقع الذي يمكن التحقق منه . والجشطلطات تقدم لنا مثل هذه الفرضية : ينبغي إذا تفحص قيمتها باهتمام .

الفكرة الرئيسة للبنيوية الصيغية Gestaltiste هي فكرة الجملة. كان امرتال قد برهن سنة ١٨٩٠ على وجود إدراكات تقوم على النوعيات الجماعية او الشكلية (Gestaltqualitat) للأشياء المركبة كنغم أو سماء : وبالفعل ، إذا تقبّل النغم من لحن إلى آخر فقد تتغير جميع الأصوات الخاصة لكن النغم يبقى رغم ذلك معروفاً . غير أن امرتال كان يرى في هذه النوعيات الجماعية تطابقاً مع تلك التي للأحاسيس .

أما الابتكار الذي جاءت به نظرية الصيغة فيمكن في أنها تتكرر وجود الاحساسات على أنها عناصر سيكولوجية مسبقة ، ولا تحتملها سوى دور عناصر « مَبْنِيَّة » وليس « بَانِيَّة » . إن المعطى ، منذ البداية ، هو جملة بما هي جملة ، أما المراد فهو تفسيرها : وهنا تدخل فرضية المجال ، التي حَسَبُها لا تصيب الاختصاصات الدماغ منغزلاً ، بل تصل ، بواسطة المجال الكهربائي

للجهاز العصبي ، إلى « اشكال » في التنظيم شبه فورية . أما ما يبقى فهو الكشف عن قوانين هذا التنظيم .

والحال ، كما في المجال تخضع العناصر دوماً لكل ، أي تعديل محلي يسبب تبديلاً في المجموع ، فإن القانون الأول للعمليات المدركة ليس فقط أنه يوجد خصائص لكل بما هو كل ، بل أيضاً ان القيمة الكمية لكل لا تساوي قيمة مجموع الأجزاء . وبكلمة أخرى ، ان هذا القانون الأول هو قانون التركيب غير الجمعي لكل ، وكلام كوهلر حول هذه النقطة واضح جداً إذ انه يرفض ، في كتابه حول Die physischen Gestalten إعطاء تركيب القوى الميكانيكية ميزة الجسطلت وذلك بسبب تركيبها الجمعي . ويسهل في ميدان الإدراكات ، التحقق من هذا التركيب غير الجمعي : يبدو الفراغ المجرء أكبر من الفراغ غير المجرء ؛ ويبدو الجسم المركب (أ) + (ب) (قضيب من رصاص تعلوه علبة فارغة ، بحيث يشكل كليهما شكلاً بسيطاً ذات لون متشيق) في بعض خدع الوزن ، أقل ثقلاً من القضيب (أ) بمفرده (هذا بما يخص العلاقات مع الأحجام الخ ...) .

والقانون الأساسي الثاني هو قانون نزعة المجالات المدركة إلى الأخذ « بالشكل الأفضل » الممكن (قانون رسوخ بنية « الأشكال الحسنة » *bonnes formes*) ، وتتميز هذه الأشكال الراسخة البنية بسهولة و انتظامها وتوازنها واستمرارها وتقارب عناصرها الخ . وهي ، في فرضية المجال ، من نتائج المبادئ الفيزيائية للتوازن ولأقل حركة (*d'extremum*) كما في حالة جسطلتات فقائيع الصابون : الحجم الأكبر مقابل المساحة الأصغر) الخ ... كما توجد قوانين أخرى مهمة تُحقق منها كثيراً (قانون الصورة التي تبرز دائماً عن الخلفية ، قانون الحدود التي تخص الصورة لا الخلفية ، الخ .) غير ان القانونين السابقين يكفيان للنفي في بحثنا .

ويحذر أولاً التشديد على أهمية مفهوم الموازنة الذي يسمح بتفسير رسوخ بنية

الأشكال الحسنة وبالإستغناء عن قطريتها: بما أن قوانين التوازن جبرية، فيكفي فعلاً عرض عمومية هذه الساقيات دون الحاجة لاسنادها الى أي وراثة . ومن جهة أخرى ، تؤول هذه الموازنة ، كسياق فيزيائي وفيزيولوجي [فلسفي ، وظائفني] مما ، نظاماً للتحويلات ولو انها جدد سريعة ، وفي نفس الوقت نظاماً مستقلاً في ضبطها . هاتين الخاصتين ، بالإضافة الى القوانين العامة للجملات ، نجملان (الجشطت) تدخل في تحديد البنيات المقترح في الفقرة الأولى .

يمكن التساؤل ، بالمقابل ، وحتى في ميدان الادراكات فحسب ، عما اذا كانت فرضية المجال ، مع نتائجها المتنوعة المناقضة للنغمية ، تكفي لتحليل الظواهر . وبرهن يارون ، بما يخص المجال الدماغي ، انه اذا قدّم لمين منفردة ، كلا من 'منبهين' خلال تجربة اعتيادية لحركة ظاهرة ، فإن هذه الحركة لا تحصل بسبب انعدام التيار المباشر الذي تفترضه النظرية بين نصفي كرة الدماغ . يمكن ، من المنظور النفسي ، اخضاع الادراكات لجميع أنواع التماهير^(١) مما يوافق قليلاً التفسير بالمجال الفيزيائي . وقد برهن بروثفيك على وجود ما سماه « بالجشطت التجريبية » ، في مقابل « الجشطت الهندسية : فثلاً ، اذا عرضنا ، بنظرة سريعة (بواسطة مبصار) ، شكلاً مسطياً ما بين يد وصورة ذات خمس أصابع غائلية الى حد كبير ، فإن نصف الراشدين فقط يصححون الشكل من وجهة الصورة (قانون الشكل الحسن الهندسي) بينما يصححه النصف الثاني من وجهة اليد (الجشطت التجريبية) ؛ والحال انه اذا تغيرت الادراكات تحت تسأثير الاختبار ، وكما يقول بروثفيك ، تحت تأثير احتمالات الحوادث (التواترات النسبية للنتائج الحقيقية) ، فهذا يعني ان تركيبها يخضع لقوانين وظيفية لا فيزيائية فقط (قوانين المجال) ، وقد اضطر «ولاش» ، مساعد كوهلر الرئيسي ، ان يتحقق بنفسه من دور الذاكرة في التراكييب المدركة .

(١) التهور : طريقة تلج إقامة علائق بين عدد من النبهات والاستجابات في الكائنات الحية يتأثر عنها اكتسابها مهارات خاصة لتكيف مع بيئتها . - المترجم -

من جهة أخرى ، أظهرنا نحن من جانبنا ومع مجموعة من معاونينا^(١) ان الإدراكات تتطور مع السن تطوراً ملحوظاً . وانه بالإضافة الى مفاعيل المجال (على ان نفهم اللفظة هنا بمعنى مجال تركيز النظر) ، توجد نشاطات مدركة ، او مبروطة بملاقات عبر استكشافات شبه قصدية ومقارنات عملية الخ ... ، تعدل من الجشطالت في مجرى التطور بشكل ملحوس : إذا قمنا بدراسة استكشافات الصور ، بشكل خاص ، من خلال تسجيل الحركات البصرية ، نلاحظ ان هذه الأخيرة في تنسيق وتحكم يتحسنان مع السن . أمسا بالنسبة لمفاعيل المجال ، فان تفاعلياتها شبه الفورية تبدو عسائدة لإوالية احتمالية من الالتقاء ، بين أقسام العضو المسجل وأقسام الصورة المدركة ، وخاصة من « مزاحجات » او تطابقات بين هذه الالتقاءات . من هذه الترسيم الاحتمالية يمكن استنباط قانون ينسف بين شتى أنواع الحِدَع البصرية - الهندسية المستوية المعروفة حالياً .

بكلمة ، ليست الذات ، حتى في ميدان الإدراكات ، مجرد مسرح 'تلمب' على عتباته مسرحيات مستقلة عنه ومضبوطة مسبقاً بقوانين موازنة فيزيائية او ثمائية : فهي الممثلة ، وغالباً أيضاً مؤلفة تراكيها ، 'تحكمها بالتتابع مع تلاحقها بواسطة موازنة عملية بمصنوعة من التعويضات المقابلة للاضطرابات الخارجية وإذا لضبط ذاتي متواصل .

وان ما يصلح في ميدان الإدراك ، يفرض نفسه بالأحرى في ميادين القوة المحركة والذكاء ، التي كان الصيغيون يريدون إخضاعها لقوانين تركيب الجشطالت بشكل عام ولا سيما المدركة منها . يعرض كوهلر ، في كتاب حول الذكاء عند القروء المتفوقة ، وهو كتاب رائع من ناحية الوقائع التي وصفها ، يعرض لفعل الذكاء في إعادة التنظيم الفجائية للمجال المدرك في انجساء أفضل الأشكال . كما

J. Piaget, « Les mécanismes perceptifs » Presses Universitaires de France - (١)

حاول «ورتيمر» من جهته قصر لعبة الجدالات الشكلية او البراهين الرياضية على بَنِيَّةٍ ثانية تخضع لقوانين الجشطالت . فتمترض هذه الشروح صعوبتان كبيرتان بسبب اتساع فرضيات المجال . تكمن الأولى في أن البنيات المنطقية الرياضية ، رغم كونها تتطوي بدون أدنى شك على قوانين مجالات (راجع الفقرات من ٥ الى ٧) ، ليست الجشطالتات إذ أن تركيبها جمعي قطعاً (٢ + ٢ يساري تماماً ، رغم أن ، أو لأن هذا الجمع يُشرك قوانين بنية الفريق الكاملة) . أما الثانية فتكمن في كون الذات الحسية او الذكية نشيطة ، فهي تبني بنياتها بنفسها ، بطرق تجريداتها العاكسة التي ليس لها أية علاقة بالصورة المدركة إلا في حالات جد استثنائية . لكن المشكلة هنا تبدو رئيسية بالنسبة للنظرية البنيوية فينبغي إذا تفحصها عن كثب .

١٢ - البنيات ونشأة الذكاء . يمكن اسناد جميع أنواع الانطلاقات الى البنيات . فاما ان تكون قد قدمت كما هي على غرار الجواهر الأبدية ، أو انبثقت ، دون معرفة السبب ، في مجرى هذا التاريخ ذو النزوات ، الذي يسميه ميشال فوكو Michel Foucault بعلم الأثریات «Archéologie» ، وإما ان تكون قد استخرجت من العالم الفيزيائي حسب طريقة الجشطالت ، أو انها تتعلق بالذات بطريقة أو بأخرى . لكن هذه الطرق ليست متميزة الاحصاء ولا يمكن لها إلا ان تتوجه ، نحو إما فطرية يُدَّعى كثيرٌ سبق تكوينها بالتحديد المسبق (إلا في حال إرجاع هذه المصادر الوراثة للبيولوجيا مما يثير ضرورة مشكلة تكوينها) ، وإما انبثاق جائز (مما يمد بنا الى علم الأثریات الذي تكلفنا عنه منذ قليل ، ولكن داخل الطيئة النسبية او اللسانية) وإما بناء . في المجموع لا يوجد سوى ثلاثة حلول : إما سبق تكوين ، وإما خلق جائز ، وإما بناء (لا تشكل عملية استخراج البنيات من التجربة حلاً مميّزاً لأنه إما ان لا تكون التجربة مركبة إلا بتنظيم يكيفها مسبقاً ، وإما ان تكون قد تكونت بطريقة توصل مباشرة الى بنيات خارجية تألفت سابقاً في العالم الخارجي) .

بما ان الانبثاق الجائز يتناقض تقريباً مع فكرة البنية ، (سنعود ونتناول هذا الموضوع في الفقرة ٢١) ، كما يتناقض مع طبيعة البنيات المنطقية الرياضية ، فان المشكلة الحقيقية تكمن في التحديد المسبق او البناء . ويبدو ، لأول وهلة ، ان سبق تكوين أي بنية تؤلف جملة متعلقة ومستقلة ، هو فارقاً نفسه . ومن هنا التجدد الدائم للترعات الافلاطونية في الرياضيات وفي المنطق ، ومن هنا أيضاً نجاح نوع من البنيوية الجامدة عند المؤلفين المأخوذون بالمنطقات المطلقة او بالمواقف المستقلة عن التاريخ وعن علم النفس . ولكن ، بما ان البنيات ، من جهة أخرى هي أنظمة تحويلات تتوالد الواحدة من الأخرى عبر سلاسل أصل (Généalogies) على الأقل مجردة ، وانت البنيات الأكثر صفة هي ذات طبيعة عملية ، فان مفهوم التحويلات يشير الى مفهوم التكوين ومفهوم الضبط الذاتي يستدعي البناء الذاتي .

تلك هي المشكلة الرئيسية التي تلقاها الأبحاث حول تكوين الذكاء . انها تلقاها بفرض الأمور نفسها إذ ان المقصود هو تفسير كيفية استيعاب الذات التي في طور النمو ، للبنيات المنطقية الرياضية . فلما ان تكشفها متجزئة لكنه من المعروف انها لن تلاحظها كما تُدرك الألوان او هيوط الأجسام ، وأنت بشئها التربوي (العائلي او المدرسي) لا يجدي إلا بقدر ما يملك الطفل حداً أدنى من أدوات الاستيعاب (Assimilation) وهي نوع من أنواع (سري في الفقرة ١٧ كيف ان هذا الأمر يطابق أيضاً التمثلات القوية) . وإما على العكس ، ان نسلم بأنها (أي الذات) تبنيها ، ولكنها ليست حرة بأن ترتبها كما يحلو لها كما ترتب لعبة او رسماً . والمشكلة الخاصة لهذا البناء هي في توضيح كيفية وسبب توصيله الى نتائج حتمية ، كما لو كانت دائماً محددة سابقاً .

ولكن ، تظهر الملاحظات والتجارب بالطريقة الأكثر وضوحاً بأن البنيات المنطقية تُبنى حتى انها لتأخذ في تكوينها إثني عشرة سنة لا بأس بها . لكن هذا البناء لا يخضع لقوانين أي تهيؤ بل لقوانين خاصة به : بفضائل اللعبة

المزدوجة من التجريدات العاكسة (راجع الفقرة هـ) التي 'تزوّد' بمواد البناء تبعاً للحاجات ، ومن الموازنة ، بمعنى الانتظام الذاتي ، التي تقدم للتنظيم التماكسي الداخلي للبنىات ، تؤدي هذه الأخيرة ، وعبر بنائها نفسه ، إلى الحتمية التي كانت تعتبر القبلية (apriorisme) دوماً أن وضعها في الانطلاقات أو بين الشروط المسبقة أمرٌ ضروري ، ولكن في الواقع التي لا 'يحتاج' إليها إلا في النهاية .

وبالطبع ، إن البنيات الانسانية لا تصدر عن لا شيء ، وإذا كانت كل بنية وليدة نشأة ما فيجب عندئذ الإقرار بعزم ، وبالنظر إلى الوقائع ، بأن النشأة تشكل دائماً المر من بنية بسيطة إلى بنية أكثر تعقيداً وذلك في سياق راجع لا نهاية له (وذلك نظراً لما هو عليه العلم في الوضع الحالي) . هناك إذاً معطيات انطلاق يجب نسبتها إلى بناء البنيات المنطقية ، ولكنها ليست معطيات أولية ، إذ أنها تحدد فقط بداية تحليلنا وهذا لعدم إمكانيات الرجوع إلى أبعد من ذلك . كما أنها ليست حق معطيات تلك ما سيكون في نفس الوقت مأخوذاً عنها ومرتكزاً عليها في تتابع البناء .

ومشير إلى معطيات الانطلاق هذه باللفظة الشاملة : « التنسيق العام للأفعال » . ونقصد بذلك الروابط المشتركة لجميع للتنسيقات الحسية دور الدخول في تفصيل تحليل المستويات مبتدئين بالحركات التلقائية للجسم وبالارتكاسات (Reflexes) التي تشكل فيه بدون شك تفريقات واسعة ، أو أيضاً بعقدتي الارتكاسات والبرجة الفطرية كسرخشة المولود وحق نصل عبر العادات المكتسبة إلى عتبة الذكاء الحسي أو السلوك الأدوية . والحال ، نجد في جميع هذه المسالك ذات الجذور الفطرية والتفريقات المكتسبة ، بعض العوامل الوظيفية وبعض العناصر البنائية المشتركة . والعوامل الوظيفية هي التمثّل assimilation أي السياق الذي حسبه يعاود السلوك عملياً ودمج معه أهدافاً Objects جديدة (نحو : مص الإيهاً مدخلا هذه العملية في سياق تصور بنية الرضعة) وتكيف تصورات التمثّل مع تنوع الأهداف . والعناصر التركيبية

هي أساساً علاقات تسلسل (تسلسل الحركات خلال ارتكاس ، تسلسلها خلال عادة ما ، تسلسلها في الصلات بين الأساليب والمرامي) ، والتداخلات embêtements (خضوع تصور سهل إلى آخر أكثر تعقيداً) والتطابقات correspondances (في التمثلات الاعترافية assimilations cognitives الخ .) .

والحال ، تسمح هذه الأشكال الأولية للتنسيق ، عبّر لعبة التمثلات السهلة والمتعاقبة reciproques ، ومنذ المستوى الحسي الذي يسبق الكلام ، تسمح بتأسيس بعض البنيات المتوازنة ، أي التي تؤمن إنتظاماتها درجة معينة من المعكوسية . والشكلان الجديران أكثر بالملاحظة هما أولاً الفريق العملي للإنتقالات (تنسيق الإنتقالات ، الف وال دوران : راجع الفقرة ٥) مع الثابت المرتبط به ، هذا يعني : بقاء الأشياء التي تخرج من المجال المدرك والتي يمكن الاهتمام إليها بإعادة تشكيل اتصالاتها ، وثانياً ذلك الشكل للسببية التي جعلت موضوعية وحيزية ، والتي تتدخل في السلوكات الأدائية (جذب الأشياء للنفس باستعمال قاعدتها أو عصا ، الخ .) . يمكن عندئذ الكلام عن ذكاء على هذا المستوى ، لكن عن ذكاء حسي ، خالٍ من التصورات ومرتبطة أساساً بالقليل وتنسيقاته .

ولكن ، ما أن تسمح الوظيفة الرمزية^(١) la fonction sémiotique (اللغة ، اللعبة الرمزية ، الصور ، الخ .) بالتعبير عن إدراكات لم يتم إدراكها حالياً ، أي التصور أو الفكر ، حتى نشهد أولى التجريدات العاكسة التي تقترح جذب بعض الارتباطات من تصورات البنية الحسية ، إرتباطات تتمكس (بالمعنى الفيزيائي) على هذا الصعيد الجديد الذي هو صعيد الفكر ، وتكون على شكل سلوكات مميزة وبنيات تصورية . وتُستغلّص مثلها العلاقات

(١) أي الوظيفة التي تقوم على صنع الرموز وتركيبها . المترجم

التسلسلية التي كانت تبقى مدرجة ، على الصعيد الحسي ، في أية بنية تصورية مُبَيَّنَة ، فتفسح المجال أمام مسلك خاص ، مسلك الترتيب والتسلسل ، كما تؤخذ التداخلات من القرائن حيث تبقى ضمنية لتفسح المجال أمام سلوك تصنيفات (ترتيبات مجازية الخ ..) وتصبح التطابقات مبكراً منهجية (تطبيقات ، واحد الى كمية ، تطابقات عنصر بعنصر بين نسخة ونموذجها ، الخ ..) . ولا شك ان في هذه السلوك بداية منطق ولكنه ذات حدودين أساسيين : لا يوجد حتى الآن أية تماكسية ، إذاً لا عمليات (إذا حددنا العمليات بإمكانية تماكسها) وبالتالي لا حفاظات كمية (لا يحتفظ الكل الجزأ بنفس المجموع ، الخ ..) . نحن إذاً أمام نصف منطق (بمعناه المجرى إذ انه ينقص النصف الآخر أي التماكسات) ، غير انه يبين لعملة مفهومين أساسيين :

١ - هناك أولاً مفهوم الوظيفة او التطبيق التسلسل (مزدوجات موجهة [couples orientés]) : مثلاً إذا سحبنا تدريجياً خيطاً مؤلفاً من قطعتين (أ) و (ب) بشكل زاوية قائمة ، فيفهم الطفل جيداً ان القطعة (ب) تزداد طولاً تبعاً لنقصان طول (أ) ولكن ليس بقدره الإقرار بأن الطول الكلي (أ) + (ب) يبقى ثابتاً ذلك انه لا يحكم على الأطوال إلا بطريقة ترتيبية (ترتيب نقاط الوصول : أطول = أبعد) وليس عبر تحديد المسافات .

٢ - هناك أيضاً علاقة التطابق (الخيط هو نفسه رغم التغيير من طوله) .

وتكون هذه الوظائف والتطابقات ، مهما تكن محدوديتها ، بنيات على شكل قنات جد ابتدائية (بالمعنى الذي رأيناه في الفقرة ٦) .

والمرحلة الثالثة هي مرحلة ولادة العمليات (٧ الى ١٠ سنوات) لمكن بطريقة محسوسة ، إذ أنها تتعلق هذه المرة بالأشياء نفسها : - مسلسلات عملية

يتضمنها ترتيب في الإجماعين ، ومن هنا الانتقالية *la transitivité* المجهولة الى الآن ، أو الملحوظة من غير ضرورة ، تضيف مع تحديد كمية المضمون ، لائحة ضربية ، بناء الرقم بتركيب من المسلسلة والتضمن ، والقياس بتركيب من التجزئة والترتيب ، تحديد المقاييس التي كانت حتى الآن ترتيبية ، والحفاظ على الكميات . أما البنية الشاملة التي تخص هذه العمليات المتنوعة ، فهي ما أطلقنا عليها اسم « التكتلات » وهي عبارة عن فرق ناقصة (لعدم وجود ترابط كامل) أو عن نصف شبكات *semi-réseaux* (لها حدود تحتية دون حدود فوقية أو العكس : راجع الفقرة ٦) وبالأخص التي تنتج تراكيبها شيئاً فشيئاً دون دمج .

وعند القيام بتحليل البنيات ، يُكتشف بسهولة كيف أنها تصدر جميعها عن سابقاتها وذلك بحكم لعبة مزدوجة من تجريدات عاكسة تزودها بجميع العناصر ، ومن موازنة هي مصدر التعاكسية العملية . وهنا نشهد خطوة خطوة ، تكوين بنيات صحيحة ، إذ إنها منطقية ، وفي نفس الوقت جديدة بالنسبة الى البنيات التي سبقتها : وهكذا تتجم التحويلات المؤلفة للبنية عن تحويلات تكوينية ولا تختلف عنها إلا بتنظيمها المتوازن .

لكن الأمر يتوقف عند هذا الحد إذ تؤدي مجموعة جديدة من التجريدات العاكسة الى بناء عمليات جديدة عن سابقاتها ودون ان نضيف شيئاً جديداً ما عدا تنظيم فان غير انه ذات أهمية كبيرة : فن جهة ، تصل الذات ، مُعَمَّمة التصانيف الى هذا التصنيف للتصنيفات (وهي عملية من المرتبة الثانية) الذي يشكل الدمج *la combinatoire* . ومن هنا إذا « مجموع الأقسام » وشبكة بول *le réseau de Boole* . ومن جهة أخرى ، يؤدي التنسيق بين التماكسات التي تخص تماكسية « تكتلات » الفئات « (أ) - (أ) = صفر » ، والتقابليات التي تخص « تكتلات » العلاقات ، الى فريق الرباعية : « ت ن ب أ » الذي سبق أن عرضناه في الفقرة ٧ .

وإذا استعدنا مشكلتنا التي انطلقنا منها ، نتأكد أن بين سبق التكوين المطلق للبنيات المنطقية واختراعها الاختياري أو الجائز ، يوجد مكان لبناء يصل في آن معاً إلى حتمية نهائية وإلى وضع لازمني بصفته تماكسي . أنه يصل إلى كل ذلك عبر ضبط لذاته تفرضه متطلبات متزايدة دوماً ، (وهي متطلبات لا بد لها إلا أن تتزايد في مجرى السياق هذا إذا كان الضبط يتوخى بالفعل توازناً متحركاً وثابتاً في نفس الوقت) . ويمكن بالطبع القول بأن الذات لا تعمل سوى اللحاق ببنيات موجودة أزلياً بالقوة ، وبما أن العلوم المنطقية – الرياضية في علوم الإمكان أكثر منها علوم الواقع ، فإن بإمكانها الاكتفاء بهذه الافلاطونية ذات الاستعمال الداخلي . أما إذا مددنا المعرفة المتقطعة إلى علومية فيبقى أن نساءل أين نحدد هذا الوجود بالقوة *ce virtuel* . فإسنادها إلى جواهر *essences* لا يشكل سوى قياس دائر . والبحث عنها في العالم الفيزيائي غير مقبول ، وتحديد ما في الحياة العضوية أمر على الأقل أخصب ولكن شرط أن نتذكر بأن الجبر العام لا يتعلق بتحركات البكتيريات أو الفيروسات *des bacteries ou des virus* . يبقى البناء نفسه ولا نعلم لماذا يُعتبر التفكير ، بأن الطبيعة الأخيرة للواقع هي كونها في بناء دائم عوضاً عن افتراض كونها تراكماً لبنيات جاهزة ، تفكيراً يدعو للسخرية .

— ١٣ — البنيات والوظائف . توجد عقول لا تحب الذات ، فإذا ميزنا هذه الأخيرة من خلال « تجسارها التي عاشتها » نعتز عندئذ بأننا من بين هؤلاء . وما زال ، وللأسف ، يوجد كثير من المؤلفين يُركّز علماء النفس بنظرهم ومن تحديد اللفظة نفسها على الذات التي تُفهم بأنها تجربة شخصية عاشتها . ونعتز نحن أننا لا نعلم عن هؤلاء شيئاً ، فإذا كان عند المحللين النفسيين *psychanalystes* منبر للانكباب على حالات شخصية يُعشّر فيها بصورة مستمرة على نفس التزايدات ونفس المقد ، فإن ذلك يعني أن المراد أيضاً هو الوصول إلى أليات مشتركة .

ومن البديهي في حال بناء البنيات المعرفية أن لا تلعب التجربة المباشرة
إلا دوراً ضئيلاً إذ أن الأشخاص لا يعون هذه البنيات ، غير أننا نجدها
في تصرفهم العملي وهو أمر مختلف تماماً . انهم لا يعونها بما هي بنيات شاملة
Structures d'ensemble إلا حين بلوغ سن تكتمهم من التفكير في البنيات
تفكيراً عالياً .

ومن البديهي أنه إذا وجب الاستعانة بسأفعال الذات لتحليل التراكمات
السابقة ، فإنه يجب الاستعانة بذات معرفية Sujet épistémique هذا يعني
الاستعانة بأليات مشتركة بين جميع الأشخاص إفرادياً من نفس المستوى وبكلمة
أخرى بشخص « عادي » . شخص عادي لدرجة أن إحدى الأساليب الأكثر
فائدة لتحليل أفعاله هي بناء نماذج من الذكاء الاصطناعي على شكل معادلات أو
أليات ، وتقديم نظرية إوالية آلية theorie cybernétique للوصول إلى
الشروط الضرورية واللازمة ليس لبنيتها في المجرى بل لتحقيقها الفعلي ولاشتغالها .
تصبح البنيات من هذا المنظور غير قابلة لأن تُفصل عن اشتغالها وعن وظائفها
بالمعنى السيولوجي للكلمة . وقد نكتشف بأننا تعدينا ، في حال ادخال الضبط
الذاتي أو النظام الذاتي إلى تحديد البنيات ، بمجموع الشروط الضرورية . غير
أن الجميع يقر بأن البنية قوانين تركيبية وهذا يعني إذا أنها منضبطة . ولكن
من أو ما ؟ فإذا كان الجواب هو المنتظر ، فإن الأمر عندئذ لا يتعدى الكائن
الشكلي . وإذا كانت البنية « فعلية » ، هذا يعني وجود ضبط عملي ، فيجب إذا ،
وبما أن هذا الضبط هو ضبط مستقل ، الكلام عن انتظامات ذاتية (وقد أعطت
الفقره ١٢ مثلاً على ذلك) . وهكذا نعود ونقع في مسألة ضرورة وجود
الاشتغال ، فإذا اجبرتنا الوقائع على نسب البنيات إلى ذات ما ، فيمكننا حينئذ
تحديد هذه الذات كمركز اشتغال .

لكن لم مثل هذا المركز ؟ إذا كانت البنيات موجودة وتحتوي كل منها على
انتظام ذاتي ، أفلا يعود جعل الذات مركز اشتغال ، إلى لعب مجرد دور

مسرح ، الامر الذي اخذناه على النظرية الصيفية ، وألا نكون قد عدنا الى مسألة البنيات المستقلة عن الذات التي يحلم بها عدد معين من البنيويين الحاليين ؟ فلو كانت البنيات تبقى على ما هي ، من البديهي عندئذ ان يصح الامر الذي نتعامل عنه . اما اذا أخذت تشكل روابط فيما بينها عن طريق الانسجام بين جواهر افسراد منفصلة على نفسها ، فتعود الذات وتصبح العضو الرابط حقوقياً وذلك فقط بمعنىين ممكنين : فاما أن تغدو الذات « بنية البنيات » ، لأنها الصورية Le moi transcendantal الخاصة بالأولية (أو القبلية) l'apriorisme ، أو بشكل اسهل « الآما » التي تعلق بنظريات التآليف السيكلوجي (راجع المؤلف الأول لبيارجانيه l'automatisme psychologique » الذي أدت به ديناميته الى تعديده نحو معنى وظيفي ونفسي وراثي) ، وإما أن الذات لا تملك قدرة كهذه ولم تكن لديها بنيات قبل أن تبنيها ، ويجب تمييزها ، بتواضع أكبر وواقعية أكثر ، بأنها لا تؤلف سوى مركزاً لاستغلال البنيات .

وحان وقت تذكركم بأن الأعمال البنيوية للرياضيين قد أجابت في الواقع على هذا السؤال بشكل أدق من تقاربته مع التحاليل النفسية الوراثة : لا يوجد « بنية لجميع البنيات » في نفس معنى « مجموع لجميع المجموعات » الخ ... ولا يعود سبب ذلك فقط إلى التناقض المعروف بين المذهبين بل يعود إلى أعماق من ذلك بكثير ، إلى حدود التعميد (الحدود التي أسندناها في الفقرة ٨ إلى نسبية الأشكال والمضامين والتي نرى الآن بأنها تعود أيضاً إلى شروط التجريد العاكس وهو أمر يؤدي إلى نفس النتيجة) . وبكلام آخر ، ان التعميد نفسه للبنيات هو بنسباء يؤدي في المجرى إلى سلاطة للبنيات ، بينما في الملموس ، يولد توازنها التدريجي ، سلسلات وراثية نفسية (مثلاً : من الوظيفة إلى التكتلات ، ومن هذه إلى فرق من أربع تحويلات وإلى شكات) .

إن الوظيفة الأساسية (بالمعنى البيولوجي للكلمة) التي تؤدي إلى تكوين

البنىات هي ، في البناء المقترح في الفقرة ١٦ ، وظيفة « التمثل » ، التي أبدلناها بوظيفة « التجميع » الخاصة بالخطوط الذرفية للنظريات غير البنيوية . والتمثل في الواقع هو مؤلّد التصورات وبالتالي البنيات .

يمثل الجهاز العضوي ، من المنظور البيولوجي ، في كل من تفاعيله مع الأجسام أو مع مفاعيل البيئة ، يمثل الأجسام إلى بنياته الخاصة وذلك في نفس الوقت الذي يلائم نفسه للظروف ، ويغدو التمثل هكذا عامل دوام واستمرار لأشكال الجهاز العضوي . على صعيد السلوك ، ينزع فعل ما إلى تكرار نفسه (تمثل مُكْرَرٌ) ، من هنا إذا التصور الذي يسعى إلى إدماج الأشياء المعروفة أو الجديدة التي يحتاجها عمله (تمثل اعتراضي وتمثل معمم) . والتمثل إذا مصدر لعلاقات وتطابق مستمرة ، ولتطبيقات والخ... فهو يصل ، على صعيد التصورات العامة التي تشكل البنيات . غير أن التمثل يحد ذاته ليس بنية : أنه فقط مظهر وظيفي للتراكيب البنيوية ، يتدخل في كل حالة خاصة ولكنه يؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى التمثلات المتبادلة assimilations réciproques أي إلى روابط ترداد متأناة وتربط البنيات ببعضها .

لا يمكننا إنهاء هاتين الفقرتين ١٢ و ١٣ دون تبيان واقع انت دعم بنيوية كهذه لم يمنعه لها جميع المؤلفين ، وبالأخص في الولايات المتحدة . « برونز » ، مثلاً ، لا يؤمن بالبنىات ولا حتى بالعمليات ، لأنها تبدو له ملطخة « بالإنطقية » ، ولا تعبر عن الوقائع النفسية عبر ذاتها . غير أنه يؤمن بأفعال وتدابير النيات (في المعنى الذي تفهمه نظرية القرارات la théorie des décisions) كيف إذا ، نُكَلِّمُ بأن الأفعال لا يمكنها أن تستبطن نفسها نحو عمليات وبأن التدابير تبقى منزلة عوضاً عن التنسيق فيما بينها لبأورة نظام معين ؟ وهو يبحث من جهة أخرى عن مصدر التطورات المعرفية للذات progrès cognitifs du sujet داخل النزاعات بين مختلف انماط الإدراك : اللغة ، والصورة ، وتصورات الفعل نفسه . لكن إذا كانت هذه النماذج لا تقدم سوى

نظرة غير كاملة ، وأحيانا مشوهة عن الحقيقة ، فكيف التوفيق فيما بينها دون العودة إما إلى نسخة عن الواقع ، وهي نسخة لا يمكن تحقيقها إذ أنها غير مشاركة univoque (لتفصيل الواقع ، يجب معرفته عن غير طريق هذه النسخة) وإما بالضبط إلى بنيات هي تتسق لجميع الأدوات الجاهزة ؟ لكن ، ألن تلعب اللغة نفسها بالنهاية هذا الدور المُمَيِّز والبنائي . وألن تُدعى بـ « بنيوية » شومسكي ، لتسهيل المسائل التي ناقشناها في هذا الفصل ؟ هذا ما يجب علينا تفحصه .

البنوية اللغوية

١٤ - بنوية النظام اللغوي المتزامن ، إن اللغة مؤسسة جماعية ذات قواعد تفرض نفسها على الأفراد وتتناقل بطريقة تجبرية من جيل الى آخر منذ أن كان الناس ، تشتت اشكالها الخاصة من اشكال سابقة تنحدر هي نفسها من اشكال أكثر بدائية وعلم جرا دون توقف منذ أصل وحيد أو أصول أولية متعددة . من جهة أخرى ، تدل كل كلمة على مفهوم يشكل معناها ، ويذهب مناهضي العقلانية الأكثر عزمًا ، مثل بلو مفيلد ، الى حد الدفاع عن ان طبيعة هذه المفاهيم تقتصر كلياً على هذا المعنى للكلمات (بقول بلو مفيلد بتعدد أكثر أن لا وجود لهذه المفاهيم : انها لا شيء سوى معنى الكلمات ، مما يشكل بحمد ذاته طريقة لتسحب وجوداً وتحديدًا) . وأكثر من ذلك ، يتألف علم النحو *la syntaxe* وعلم الدلالة *la sémantique* من مجموعة قواعد ، على التفكير الفردي أن يخضع لها بنفسه عندما يريد ان يعبر عن شيء ما إما الى الغير وإما داخلياً .

وبالاختصار ، تشكل اللغة كونها مستقلة عن القرارات الفردية ، وحاملة تقاليد ألوف السنين وبالإضافة الى كونها أداة ضرورية لتفكير اي واحد ، تشكل فئة ذات امتياز في الحقائق الانسانية ، ومن هنا فالتفكير بانها مصدر لبنيات مهمة من ناحية عمرها بشكل خاص (انها تفوق عمر العالوم بكثير) ومن ناحية شموليتها وقدرتها ، هو امر طبيعي جداً . قبل ان نأتي الى بنيات اللغة كما يراها اللغويون ، فلنذكر بان مدرسة علومية بكاملها ، الوضعية المنطقية ، تعتبر ان المنطق والرياضيات يؤلفان علم نحو وعلم دلالة عموميين بحيث لا تصبح ، من هذا المنظور ، للبنيات

التي شرحناها في فصلنا الثاني سوى بنيات لغوية . بينما اعتبرناها نحن ، على العكس ، نتاجاً لتركيب وتجريدات عاكسة انطلاقاً من التنسيقات العامة للفعل : وقد توجد من هذا المنظور الثاني ، تنسيقات عامة كهذه ، تنطبق على كل شيء ، في التنسيقات بين أعمال الاتصال والتبادل وبالتالي توجد في اللغة . في هذه الحالة ، لا تصبح البنيات اللغوية أقل جدارة بالاهتمام ، لكن تختلف علاقاتها مع البنيات المتعلقة بالمداول *signifié* . ومما يمكن الحل ، ففي مسألة العلاقة بين البنيات اللغوية والبنيات المنطقية مشكلة أساسية للبنىوية عامة .

ونشأت البنىوية اللغوية حين يثنّ فردينان دي سوسور بأن سياق اللغة لا يقتصر على التطورية *diachronic* وبأن تاريخ الكلمة مثلاً لا يعرض معناها الحالي . ويمكن السبب في وجود هذه نظام ، (لم يكن سوسور يستعمل لفظة بنية) بالإضافة إلى وجود التاريخ ، وفي أن نظاماً كهذا يرتكز على قوانين توازن تؤثر على عناصره وترتبن في كل حقة من التاريخ بالنظام اللغوي المتزامن *Synchronic* : بالفهم ، فالعلاقة الأساسية التي تدخل في نطاق اللغة هي عبارة عن تطابق بين الإشارة *Signe* والمعنى . ومن الطبيعي أن تؤلف مجموعة المعاني نظاماً يرتكز على قاعدة من التمييزات والمقابلات إذ أن هذه المعاني تتعلق ببعضها ، كما تؤلف نظاماً متزامناً إذ أن هذه العلاقات مترابطة .

وإذا كانت البنىوية الأولية مترامنة أساساً (في مقابل النظرة التطورية لقواعد اللغة المقارنة *la grammaire comparée* في القرن التاسع عشر ، وفي مقابل المنظور التحويلي لبنىوية هاريس وشومسكي الحديثة) فإن ذلك يعود إلى ثلاثة أسباب يجب وزنها بتأثيراً لعدد المؤلفين الذين ، رغم كونهم ليسوا لغويين ، قد أخذوا من التأثيرات السوسورية فكرة استقلالية البنيات عن التاريخ . يرسم السبب الأول طابعاً عاماً جداً ، وهو يتعلق بالاستقلالية التسمية لقوانين التوازن بالنسبة لقوانين التطور : في هذا الصدد ، تأثر سوسور في جزء من إلهامه ، بالاقترصاد الذي كان في عصره يشدد خاصة على الأولى (د بارتو) بعد

« ولراس » ، وحيث يمكن في الواقع للأزمات بأن تؤدي إلى تعديل كامل للمفهوم المستقلة عن تاريخها (إن سعر التبغ سنة ١٩٦٨ مرهون بتفاعل الأسواق الحالية وليس مرهوناً بما كان عليه سنة ١٩٣٩ أو ١٩١٤) . كان يمكن من جهة أخرى الاطلاع بهذه الاعتبارات من البيولوجيا نفسها ، إذ بإمكان المصو تفسير وظيفته أو يمكن للوظيفة أن تتأثر بواسطة أعضاء مختلفة .

أما ثاني هذه الأسباب (وربما كان باستطاعته أن يكون الأول) ، فهو إرادة التخلص من العناصر القريبة على علم اللغة ، والاكتفاء بميزات النظام الملازمة .

أما السبب الثالث للميزة التزامنية للبنوية السوسورية ، فتتعلق بوضع خاص بعلم اللغة شدد عليه سوسور في اندفاع منهجي تاماً : لا تحتوي الشارة الشفوية ، لكونها اصطلاحية ، على علاقة جوهرية ، وبالتالي ثابتة ، مع معناها : انه المبدأ الذي يعتبر بأنه ليس في ميزات الدال اللفظية ما يشير إلى قيمة أو مضمون مدلوله ، وقد وضع « جاكوبسون » حديثاً موضع الشك ، هذا التأكيد على تحكم الشارة الذي كان « جاكوبسون » قد تخفف منه . لكن « سوسور » كان قد أحاب سلفاً على هذه الاعتراضات حين ميّز بنفسه بين « التحكم النسبي » و « التحكم الكلي » . ومن المؤكد في الخطوط العريضة ، ان العلاقات التي تربط الكلمة بالمفهوم الذي تدل عليه ، أقل من العلاقات التي تربط هذا المفهوم بتحديدته أو مضمونه : بالرغم من وجود رمزية مصيغة ترافق أحياناً الشارة اللفظية ، (وذلك في المعنى السوسوري لعلاقة تسببية أو تشابيهية بين الرامز symbolisant والرموز إليه symbolisé ، وبالرغم من أن الكلمة لا تبدو مطلقاً اختيارية بالنسبة للمتكلم نفسه ، كما ذكر بذلك « بنفست » ، ويستعد الأطفال بأن الأشياء تملك أسماءها مادياً : وكأن هذا الجبل كان يملك دائماً اسمه قبل أن يُسميه الناس وهم ينظرون إليه) ، بالرغم من ذلك ، فإن تعدد اللغات نفسه يؤكد بديهياً هذه الميزة الاصطلاحية للشارة اللفظية . زد على ذلك أن الشارة هي دوماً شارة اجتماعية (انها عبارة عن اصطلاحات صريحة أو ضمنية يرجع سببها

للاستعمال) . بينما يمكن للرمز أن يكون من أصل فردي ، كما هي الحال في اللعبة الرمزية أو في الحلم .

يبدو واضحاً ، إذا كان الأمر كذلك ، أن العلاقات بين النظام المتزامن والنظام التطوري ، لا يمكن إلا وأن تختلف في علم اللغة عما هي عليه في مجالات أخرى ، حيث لا تشكل البنية ، بنية طرق التعبير بل بنية المدلولات نفسها (في مقابل الدلائل) ، أي بنية وقائع تحتوي في ذاتها على قيمتها وقدرتها المعيارية *Leur pouvoir normatif* . أما خاصية المعيار ، فهي كونه لازماً أي كونه يحتفظ ويحفظ قيمته بفضل هذا اللزوم نفسه . أما توازنه الحالي فيرتن بتاريخه إذ أن هذه الميزة للتطور هي بالتجديد أن تَوجَّه نحو هكذا توازن^(١) (راجع الفقرة ١٢) ، بينما يمكن لتاريخ كلمة ما أن يكون تسلسلاً لتغييرات في المعاني ، دون أي رابط بينها سوى ضرورة الجواب على حاجات تعبيرية للأنظمة المتزامنة المتتالية ، حيث تشكل الكلمة جزءاً منها . وتثل البنيات المعيارية والبنيات الاصطلاحية بما يخص بملاقات النظام المتزامن بالنظام التطوري ، مركزين متقابلين جذرياً . أما بالنسبة لبنيات القيم *les structures de valeurs* ، كما في الاقتصاد ، فإنها تثل موقفاً وسطياً يرتبط بالنظام التطوري من ناحية تطور أدوات الانتاج ، وخاصة بالنظام المتزامن من ناحية التفاعلية نفسها للقيم .

بينما كان بلومفيلد ومساعدوه يطورون علماً للغة وصفاً وتصنيفياً ، ومرتكزاً خاصة على أساليب تقسيمية *Méthodes distributionnelles* ، ومحددتين بنيوية النظام المتزامن السوسورية ، وجد هذا أشكالاً جديدة في دراسته علم اللفظ الكلامي (*la phonologie*) . وكانت « المقابلات » (أو الانقسامات الثنائية في داخل فئة) تخص إلى الآن العلاقات بين الدلائل والمدلولات ، في حين

(١) توازن يرتكز إداً على تماكسية متزايدة . بيتا الذي يقصد أكثر في علم اللغة هو المقابلات *oppositions* دون استبعاد إوليات ضبط ذاتي جماعي غير معروف جيداً في الوقت الحاضر .

أنه شَبَدَ مع « ترويتز كوي » نظام مقابلات لفظية يُحدِّدُ اللفظ Phonème تبعاً لها، وما زالت توضح هذه البنيوية مع نظام العناصر التفاضلية لجكوبسون. ثم أصبحت البنية « مع « هيجلسلف » ، يليه « ف . بروندال » و « توجيبي » (دون التعرض للمجالات الدلالية لـ « ج . ترير » ، أصبحت « كيان خاص ذات ارتباطات داخلية » وإذا كان « هناك نظام وراء كل دعوى » ، فالسياق ليس سوى المر من نظام إلى آخر ، وهو يمر غير مكوّن ولكنه عائد للرسوخ المكنسبة من النظام الثاني بمتضى التفاعلات المتزامنة كلياً . والمفردات القائمة التي يستعملها « هيجلسلف » تجعل نقاش أفكاره صعباً ، لكن ، يحذر الملاحظة بما يخص العلاقات بين اللغة والمنطق التي منعود وتكلم عنها (في الفقرة ١٦) ، أنه أقام فرضية نوع من Sublogique المصدر المشترك لهذه العلاقات . لكن بنيوته ليست في الأساس أقل ثباتاً ، فهو يشدد على « التبنيات » dépendance وليس على التحويلات .

١٥ - البنيوية التحويلية والعلاقات بين تطور السكان الفرد

• ontogenèse والنسالة phylogenèse

من الاهمية بمكان الملاحظة بأن شكل البنيوية اللغوية بدأ يأخذ منذ « هاريس » وخاصة مع شومسكي ، اتجاهاً توليدياً واضحاً على صعيد بنية علم النحو رغم الأسباب القوية التي تربط البنيوية اللغوية باعتبارها النظام المتزامن . ويرافق هذا البحث في التواليد اللغوي ، كما وجب ، سعي نحو تفصيل يتناول التحويلات التي تلك فوق ذلك ، ولنسجل ذلك ، قدرة معيارية للفرز تستبعد بعض البنيات ذات التركيب السيء . تصل البنية اللغوية من خلال منظور كهذا ، إلى صف البنيات الأكثر عموماً . تصل إلى هذا الصف مع قوانين الجملات التي ليست قوانين وصفية وثابتة بل قوانين تحويلات ، مع ضبطها الذاتي العائد لميزات هذا التركيب .

إن دوافع هذا التفسير الملحوظ للمنظور هي على نوعين ، ويمكننا تحليله في

سبيل دراسة مقارنة للبنويات (وليس فقط للبنيات نفسها) لأن كل منها يتألف من وضع يمكن وصفه دون مبالغة بأنه « متداخل في التسالم » ، « interdisciplinaire » . يتعلق النوع الأول بملاحظة الجانب الخلاق من اللغة ، وقد سبق « لهارى » و « م. هال » أن قاما بهذه الملاحظة . والمقصود هو الجانب الذي يظهر في الغالب على صعيد الكلام (في مقابل اللغة) أي الذي يظهر في مجال نفسي — لغوي psycholinguistique . وبالفعل ، فبعد سنين طويلة من فقدان علم اللغة ثقته بعلم النفس ، جاء العلم النفسي — اللغوي ليعيد بنسائه الجسور ، وهذا امر مهم شومسكي مباشرة : « في صميم اهتمامات البحث الحالي نجد ما يمكن تسميته على صعيد الاستعمال الجاري بالجانب الخلاق في اللغة . يجري كل شيء كما لو أن الشخص المتكلم ، يخترع نوعاً ما لفته كلما عبر » ، أو يعيد اكتشافها فور سماعها حوله و كأنه قد دمج مع مادته الفكرية الخاصة نظاماً متمسكاً من القواعد أو قانوناً وراثياً (ونشدد على هذا) ، يحدد بدوره النفسي الدلالي لمجموعة غير محدودة من الجمل الحقيقية المتغيرة أو المسبوقة . ويجري كل شيء ، بكلام آخر ، كما لو انه يتصرف بقواعد توليدية للغة الخاصة^(١) .

إما الدافع الثاني الذي يستلهم شومسكي في بحثه عن قوانين تحويلات هذه « القواعد التوليدية » فيظهر أكثر تناقضاً لانه يبدو متجهاً للوهلة الأولى نحو ثباتية fixisme جنسية ، ليس بالضبط نحو مفاهيم المصدر والتحويل : ان الفكرة القائلة بأن قواعد اللغة تفرز جنورها في العقل وفي العقل القطري . وينفوس شومسكي بعيداً في هذه الطريق حتى يصل في كتاب له جديد الى اعتبار نفسه من اتباع « أرنو » و « لنسو » « la grammaire générale et raisonnée de Port - Royal وحتى لديكارث نفسه في تحاليله العلاقات بين اللغة والفكر^(٢) .

(١) N. Chomsky : De quelques constantes de la théorie linguistique Diogené , 1965 (No . 51) P . 14 .

(٢) المقصود عن ديكارث أكثر من الفكر بل الروح أو النفس « Esprit » .
الترجم

وبالفعل ، تُستقى قواعد التحويلات التي تسمح ببناء سلسلات من بيانات مشتقة ، من بيانات مركزية ثابتة . وإليها يرجع شومسكي ويربطها بالنطق (كالعلاقة بين الذات والمحمول *Prédicat* . وهذا لا يمنع الموقف الجديد (الذي يقول عنه شومسكي : « انه يعود بنا إلى تقليد فكري قديم أكثر مما يؤلف ... تجديد جذرياً في مجال علم اللغة وعلم النفس »)^(١) أن يشكل اختلافاً كلياً للمعنى بالنسبة للوضعية المنطقية: فبينما كان يريد هذا الأخير ، ويليهِ « بلومفيلد » بحماس ، أن يرجع بالرياضيات إلى علم اللغة ، وبالحياة الذهنية كلها إلى الكلام ، قسام حينئذ علم اللغة يقول باشتقاق القواعد من المنطق واللغة ، في حيلة ذهنية يوجهها العقل ...

ويتضح جيداً هذا الاختلاف للمعنى على الصعيد المنهجي . ففي مقال شيق يشكل ، وراء ما يحتويه من بجملة وحسن عادل ، نقداً لاذعاً للوضعية المنطقية وللأساليب اللغوية التي تتبع عنها^(٢) ، حللّ « أ . باخ » المسلمات الافتراضية العلومية في بنى شومسكي تحليلاً ناقداً .

ان ما يميز الجهد الجدير بالملاحظة في علم اللغة الأميركي من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٥٧ حسب « باخ » هو الأسلوب الباكوني: التراكم الاستقرائي للوقائع ، هرمية مستويات غير متجانسة ، من المجالات (علم اللفظة ، علم النحو ، الخ ...) التي ارتبطت نوعاً ما بعد فوات الأوان ، فقدان الثقة بالفرضيات ولكي نقول كل شيء عن الأفكار ، بحث عن « الأسس » في البيانات « الشكلية » الخ ... بينما يفترض على العكس أسلوب شومسكي ، الذي وضعه باخ تحت رئاسة « كبلر » بالمقابل مع أسلوب « باكون » ، التحقق من عدم وجود أسس كهذه ، ومن حاجة العلم إلى الفرضيات (وحتى إلى الفرضيات التي استطاع « ك . بوبر » أن يقول بأن

(١) المقال نفسه ص ٢١ .

(٢) Emmon Bach : Linguistique Structurale et philosophie des Sciences, Diogenes, 1963 (No. 51), p 117-136 .

أفضلها هو أقلها احتمالاً ، لكن التي تسمح ، لإمكانية ترويضها ، باستبعاد أصعب عدد من النتائج . نستنتج من ذلك إذاً ، انه بدل البحث عن الأسلوب الخاص بالوصول استقرائياً ، أي خطوة خطوة ، إلى خصائص اللغات المعينة وإلى اللغة عامة ، يتساءل شومسكي عما هي المسلمات الضرورية واللازمة لنظرية في علم قواعد اللغة ، وذلك بغية تحديد البنية المشتركة للغات وكذلك بغية تفريقها حسب اللغات الخصوصية المتنوعة . وتوصل شومسكي في الواقع إلى مفهوم للبنوية اللغوية بفعل مزيج من التعقيد المنطقي - الرياضي يتعلق بالـ *algorithmes* ، والوظائف التي بالإمكان تكرارها والقوانين [شيفرة - أو *codes*] ، كما يتعلق في الغالب أيضاً بالبنية الأولية للفكرة الواحدة *Monoïde* المرتكزة على التسلسل والترابطات العملية) ، وعلم اللغة العام (يتعلق في الغالب بعلم النحو لأنه عنصر خلاق) ، والعلم النفسي اللغوي (المعرفة الضمنية للمتكلم عن لغته الخاصة) .

وبكلمة ، تقدم البنوية على الشكل التالي: يمكن بادئ ذي بدء للحصول تكرارياً على مجموعة قواعد كتابية (*écriture*) على كل شكل أ - ي حيث يرمز أ إلى الفئات (الجمل ، الخ ...) و ي إلى واحد أو عدة رموز (رموز جديدة لفئات أو رموز نهائية) . فإذا طبقنا عمليات التحويلات على سلسلات الرموز غير النهائية نحصل على بيانات مشتقة ، ويؤلف مجموع هذه التحويلات قواعد اللغة التوليدية ، قواعد لغوية باستطاعتها قريباً إنشاء روابط بين دلالات اللفظة واللفظ في تراكيب ممكنة لا متناهية^(١) .

يشكل هذا الإجراء البنوي الصحيح أداة ممتازة للمقارنة ، إذ انه يستخلص نظاماً متأسكاً من التحويلات (مؤلفاً شبكات معقدة تقريباً) ولكنه ينطوي على فائدة تطبيقه على الجدارة الفردية ، بما هي قواعد لغوية باطنية للشخص المتكلم أو المصنفي ، وتطبيقه أيضاً على اللغة كمؤسسة . وقد أعاد بعض العلماء

(١) Chomsky, 1965, p 21 .

النفسيين اللغويين مثل «س. إرفن» و«و. ميلر» و«ر. براون» و«إ. بلوجي» تكوين قواعد لغة الأطفال الغربية والبعيدة كثيراً عن قواعد لغة الكبار .

وإن مثل هذه التطبيقات الراهبة للبنيوية الشمسية الجديدة بالملاحظة : لأنها أولاً تخفف من حدة التناقض الذي أراد أن يُقيمه ، منذ « دويت وثي » في سنة ١٨٦٧ و ١٨٧٤ دركام ودي سوسور (الذي تأثر من الاثنين السابقين) ، بين اللغة كمؤسسة اجتماعية والكلام ، كما لو أنه لم يكن على هذه وعلى كل الفكر الفردي معها إلا أن تستقلب في البطاقات الجماعية . ثم لأن هذا الاعتبار للدور الذي يلعبه تطور الكائن الفرد ، وحتى إذا كان هذا التطور يدخل في نطاقات النسالة (phylogénèse) أو التطور الاجتماعي . ولكن في نطاقات عدل فيها دوماً بالمقابل^(١) ، لأنه إذا وافق ميولا يمكن لنا التماسها حالياً في تعامل مختلفة جداً كالبيولوجيا كما يفهمها « ديدنغتون » ، والعلوم الوراثة في ظواهرها المتعددة ، هذا إذا صححوا لنا بهذه الإحالة .

يلاحظ اليوم الربط الممكن بين تطور الكائن الفرد والبنوية اللغوية في مجالات كان يصعب في الماضي تصوره فيها ونقصد : على صعيد الانفعال الشعوري l'affectivité والرمزية اللاواعية . وقد اهتم « ش. بالي » وهذا صحيح ، منذ زمن ، بما سماه « اللغة الانفعالية الشعورية le langage affectif ووظيفتها تقوية التعبيرية l'expressivité التي تبثتدل باستمرار في اللغة الدارجة لكن » دراسة الأساليب la stylistique عند بالي ، كانت تبين في هذه اللغة الانفعالية الشعورية قبل كل شيء ، تشكيل البنيات الاعتيادية للغة . ويمكن بالمقابل التساؤل إذا كان للانفعال الشعوري لفته الخاصة وهي فرضية دافع عنها « فرويد » نهائياً وذلك تحت تأثير « بلوير » و« جوتل » ، بعد ان اراد تفسير الرمزية بلعبة القناعات ، le jeu de déguisements . غير ان جانك كان يرى في الرموز نماذج مثالية

(١) لو كان الكبار يميئون معدل ٣٠٠ سنة والمسافة بين الاجيال فيحة ، فهل تشابه اللغات ، وحتى الأكثر مدنية ، بما هي عليه حالياً ؟ .

وراثية ، بينما فتش فرويد بكل ادراك عن مصدرها في تطور الكائن الفردي .
ونبدو هنا في مجال لا علاقة مباشرة له بعلم اللغة ، رغم كونه مهماً للوظيفة
الرمزية ولعلم دلالة الامراض عامة la sémiologie . « جاك لا كان » هو أول
من تنسب حديثاً إلى ضرورة مرور أي تحليل نفسي عبر اللغة : انفسا لغة
المتكلم طبعاً غير انه بطبيعة الحال لا يتكلم كثيراً ، ولغة المتكلم خاصة . إذ
أن أساس السياق التحليلي النفسي يفترض بالنسبة للشخص أن تتقل رمزيته
الفردية اللاواعية إلى لغة اجتماعية وواعية . مركزاً على هذه الفكرة الجديدة ،
استلهم « لا كان » من البنيوية اللغوية ومن نماذج رياضية معروفة ، في محاولة
لاستخراج بنيات تحويلات جديدة مخاطرأ بإدخال لا عقلانية اللاوعي والرموز
التي لا يُعبر عنها ، في قالب من لغة تهدف طبعاً إلى التعبير عن الشيء الذي
يمكن التعبير عنه . وفي هذا هنا محاولة ، يكفي مشروعها نفسه ، لأن يكون
ذا فائدة أكيدة . ولكنه من الصعب تحليل نتائجها قبل أن يوضحها « غير
المدرين » les non-initiés حسب المعنى الذي يعطيه جماعة المحللين لهذه
اللفظة الأخيرة (لأنه لو كان من البديهي وجوب التدرّب بمعنى معرفة الوقائع
التي تتحدث عنها ، فلا يمكن بلوغ الحقيقة كما هي إلا بعد إبعاد التأثيرات التي
أولدها) .

١٦ - التكوين الاجتماعي ، النظرية أو موازنة البنيات اللغوية .
يدفع هذا المزيج ، ذات الاهمية ، من التدريبية génélisme^(١) والديكارتية ،
الذي يميز شومسكي ، يدفع بهذا الأخير للدفاع عن رأي غير منتظر إيجاده عند
لغوي معاصر . ويربط هذا الرأي « بالأفكار الفطرية » التي تكلم ديكارت عنها
وبالوراثة التي يجب عليها بنظر بعض البيولوجيين ، انتظار تفسير كل الحياة
الذهنية تقريباً . « إذا صح أن قواعد اللغات الطبيعية ليست فقط معقدة وبجودة
بل ومحددة أيضاً بتنوعاتها خاصة على مستوى أقصى تجريد ، فيجدر أن تثار

(١) نظرية نفسية تقول بأن إدراك الابداع هو نتيجة لتدريب الحواس . - المترجم -

من جديد مسألة ما إذا كانت هذه القواعد هي حقيقة من ثمره الثقافة ، كما درج الاعتقاد . فقد تكون اكتساب مجرد تقرير لتصوير ثابت فطري (تشديدًا) عوضاً عن اكتساب تدريجي لمعطيات وتفاعلات وتسلسلات وترابطات جديدة . والقليل الذي نعرفه عن بنية اللغة بشكل عام ، يجعلنا نعتقد بأن الفرضية العقلانية تلك أكثر الفرص ، لأن تبرز في خطوطها العريضة كفرضية خصبة وصحيحة أساساً ، (المقال نفسه ص ٢٠ - ٢١) .

وها نحن أمام الفرضية الكامنة عند أكثر المؤلفين الذين تدفع بهم ميولهم البنيوية إلى الحذر من نظريات « التكوين النفسي la psychogenèse » ونظريات « الكون التاريخي historicisme » والذين في نفس الوقت لا يريدون الرفع ببنياتهم إلى جواهر صورية essences transcendantes . ويتنوع الموقف أكثر عند شومسكي الذي يملك الحس الاختباري بقدر ما يملك حس التعقيد ، إذ تميز القواعد اللغوية الخاصة حسب سياقات التحويل التي تدخل الطور الفعلي خلال مجرى التطور نفسه : أما الذي يبقى فطرياً ، فهو النواة أو « الشكل الثابت Shéma fixe » وأيضاً البنية الشكلية العامة للتحويلات ، بينما قد تتعلق منوعاتها بهذا الطابع الخلاق الذي في اللغة ويُشدد عليه مع « هاريس » . بيد أننا أمام مسألة أساسية بما يخص هذا « الشكل الثابت الفطري » ، وهم أن نتفحص ظواهره المتنوعة .

هناك أولاً المسألة البيولوجية . ولا يكفي التحقق من كون الصفة وراثية ، بل يبقى أن نبلور كيفية تكوينها . إن مسألة فهم كيفية ظهور المراكز الدماغية للغة في مجرى الـ hominisation هي مسألة مزعجة جداً : التبدل والانتقاء الطبيعي حلولٌ ضعيفة ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بحركة ولدت أساساً من الاتصال بين الأفراد .

لكن إذا كانت المورثة (gènes) المسؤولة عن اللغة ترى نفسها مكلفة ينقل ، وراثياً ، ليس فقط المقطرة على اكتساب لغة مُبَيَّنة من الخارج ، بل أيضاً

الشكل المكون الثابت من حيث تنهج اللغة نفسها ، فإن المشكلة تصبح عندئذ أكثر تعقيداً . وإذا كانت هذه النواة التكوينية فضلاً عن ذلك مشحنة « بالعقل » ، وإذا كان يجب إذاً بالإضافة إلى ذلك القبول بوراثة هذه ، فلا يبقى سوى جوابين معقولين (لأن ، وللتشدد على ذلك ، الكلام عن التبدلات والانتقاء فقط دون أية معطيات تدعمها هو ، كما يقول « برتلنفي » كاللجوء إلى : « moulin à prières thibétain ») ، فإما سبق التكوين على الدوام (لكن لم إذا انتظار الإنسان لكي يظهر فيها أن الشنبزي أو النحلة خفيفي الدم ؟) ، وإما تفاعلات مع البيئة بشكل يصبح الانتقاء يتعلق بالارتكاسات ذي الطبع الوراثي بما هي أجوية من Génome على الدوافع الخارجية .

لكن ، مسا ان نبلغ صعيد تكون الكائن الفرد حيث يصبح تفصيل الاكتسابات والتعويلات حقيقياً ، حتى نجد أنفسنا أمام وقائع تختلف عن افتراضات شومسكي بالنسبة لأهمية أو امتداد نقاط الانطلاق الوراثية ، رغم انها تكشف عن علاقات أكيدة معها (راجع الفقرات ١٢ و ١٣) . والسبب يعود بدون شك وببساطة إلى أنه يوجد وحيث لا يرى شومسكي سوى تخيير بين أمرين - اما شكل فطري يفرض نفسه ضرورة ، وإما اكتسابات خارجية وبالأخص ثقافية ، لكن متنوعة ولا تفسر الميزة المحدودة والحتمية للشكل المقصود - فإنه يوجد في الحقيقة ثلاث حلول للتخيير وليس اثنان فقط : هناك طبعاً الوراثة أو الاكتسابات الخارجية ، ولكن أيضاً سياقات الموازنة الداخلية أو الانتظام الذاتي ، غير ان هذه السياقات توصل كالوراثة إلى نتائج حتمية وحتى من نواحي أكثر حتمية ، لأن الوراثة تتنوع أكثر في مضامينها من القوانين العامة للتنظيم معبرة عن الضبط الذاتي لكل تصرف . وبالأخص أن الوراثة لا تتعلق سوى بمضامين منقولة ، كما هي أو غير منقولة ، بينما يفرض الانتظام الذاتي وجهة منسجمة مع تركيب يصبح حتمياً ، وبالضبط لكونه مَوْجَّه .

يدافع عن هذا التفسير في حالة البنيات اللغوية نوعين من الاعتبارات يعملان

من فرضية الفطرية غير نافعة في نفس الوقت الذي يحافظون فيه على مجمل نظام شومسكي التفسيري : انها من جهة أمل تحقيق إرالي آلي réalisation cybernétique للقواعد اللغوية التحويلية ، ومن جهة أخرى تحليل التكوين النفسي للشروط المسبقة التي تجعل ممكنة اكتسابات اللغة خلال السنة الثانية من النمو .

يجب بما يتعلق بالنقطة الأولى ، أن نذكر أعمال س. سوجارت في أكاديمية موسكو للعلوم الذي يحاول إدراج التحويلات القائمة في « مجال للتحويلات » على أساس « relateurs » يزدودون بـ algorithmes ، التركيب الأوتوماتي (١) . ويمكن أن نأمل كثيراً من تحاليل كهذه تستخلص الشروط الضرورية واللازمة للنظام أو تبين على العكس حدوده . غير أنه يمكن لهذه أيضاً أن تكون مفيدة لماشككتنا لأنه لو صح ، كما يفترض « بار - هيل » (٢) أن النظم الشكلية التي تنطبق على قواعد اللغة لا تحتوي على إجراء حل كامل ، لكأنت عندئذ فرضت النتائج التي تسببها حدود التعقيد (راجع الفقرة ٨) على صعيد المطلق ، ضرورة وجود هنا وهناك ، بناء على درجات متتالية ولاستبعدت مفهوم نقطة الانطلاق التي تحتوي على كل شيء مسبقاً .

أما من حيث معطيات الاختيار وليس من حيث التعقيد أو الآلات الإرالية ، التي تحول الطابع ، فيبدو أن بنائية كهذه هي التي تفرص واقع ظهور اللغة متأخرة نسبياً خلال السنة الثانية من النمو : لم ، بالفعل ، هذا المستوى المحدد من النمو وليس مستوى أبكر ؟ وخلافاً للشروح السهلة حول التكميف التي لو كانت صحيحة لفرضت اكتساب اللغة منذ الشهر الثاني ، يتبين ان اللغة تعترض تكويناً مسبقاً للذكاء الحسي نفسه مما يبرر أفكار شومسكي حول ضرورة وجود أساس حليف للعقل .

(١) Diogène, 1965, (No. 51) p 151

(٢) Decision procedure in naturel langage, Logique et analyse

. 1959

لكن هذا الذكاء نفسه بعيد عن أن يتكون مسبقاً منذ البداية ، ويمكن أن نتابع خطوة خطوة كيف انسه ينتج عن تنسيق تدريجي لتصورات التمثل . وفرضت الفكرة التي سنعود ونتناول أعمالها حالياً ، على « هـ . سنكلر » للبحث عن مصدر « الوحدة الفكرية » لشومسكي في سياقات تكرار ورتيبات وصلات ترابطية (بالمعنى المنطقي للكلمة) خاصة في هذا التنسيق للتصورات الحسية . إذا ثبتت الفرضية يكون لدينا تفسير ممكن للبنيات اللغوية الأساسية موفرين بذلك « فطرية » مرهقة للغاية .

١٧ - البنيات اللغوية والبنيات المنطقية . بإمكاننا العودة الآن إلى مشكلتنا التي انطلقنا منها والتي تبقى إحدى المشاكل الأكثر جدالاً في البنيوية أو في العلومية بشكل عام . وحيث يجب على حلولها الجديدة أن توافق شتى أنواع الاحتمالات . حتى أن لغوياً سوفياتياً كسوجان ويعلن ، في مركز ثقافة حيث ، ظهر منذ بضعة سنوات ، بأن المفهوم البفالوفي le concept pavlovien للغة كنظام فإن التعبير قد حل جميع المشاكل ، يُعلن في موضوع العلاقات بين اللغة والفكر بأنها تشكل « إحدى أكثر المشاكل القيمة والشائكة التي تطرح حالياً » . زد على ذلك أن هدفنا ليس عرض المشكلة العامة في بعض الأسطر بل هو فقط الإشارة من منظور البنيوية وحده ، إلى جوانب المشكلة على ضوء التقدم الذي تحقّق في دراسة البنيات اللغوية .

ينبغي مع ذلك أن نبدأ بتذكير شئين مهمين : أولهما هو انفسا نعلم منذ سوسور وكثيرين غيره بفسان الشارات الشفهية لا تشكل إلا إحدى جوانب الوظيفة الرمزية وبيان اللغوية ليست ، قانوناً ، سوى قطاعاً مهماً بوجه خاص ، لكنه محدود بهذا الفرع الذي دعا سوسور بأمانيه إلى تأسيسه تحت اسم « علم دلالة الأمراض العام » « la sémiologie » وتشمل الوظيفة الرمزية ، بالإضافة إلى اللغة ، على التقليد بأشكاله التصويرية (تقليد مؤخر النخ ... يظهر في آخر المرحلة الحسية مؤمناً بدون شك ، الربط بين الحسي والتصوري) ، والإيعاء

الإشاري *la mimique gestuelle* وللعبة الرمزية ، والصورة العقلية الخ ... وغالباً ما ينسى بسان تطور العرض والفكر (دون الكلام عن البنيات المحض منطقية) يكون مرتبط بهذه الوظيفة الرمزية بشكل عام وليس باللغة وحدها ، وعلى هذا ، أن الأولاد الصمم - بكم الذي لا يشكون من خلل دماغي ، يملكون لعبة الرمزية (أو الخيال) ولغة الاشارات الخ ... (خلافاً لحالات الصمم بكم المرتبطة بالخلل الدماغي والتي لا تملك الوظيفة الرمزية) . وإذا درسنا عملياتهم المنطقية الملموسة (السلسلات والتصنيفات والحفاظات ، الخ ...) كما فعل « ب . أوليرون » ، « ه . فورت »^(١) ، « م . فنسانت » ، و « ف . أفولتر » الخ ... نشهد تطور هذه البنيات المنطقية مع بعض التأخر أحياناً لكنه أقل بروزاً مما هو عند العميان الصغار منذ ولادتهم ، والذين درسم « ي . هتول » . واللغة عند هؤلاء الآخرين وهي عادية ، لا تموض عن نقص في تكيف التصورات الحسية إلا متأخرة . بينما غياب اللغة ، عند الصمم بكم ، لا يستبعد البنيات العملية ، ويمكن أرجاع التأخير ، بمعدل سنة أو سنتين عن المجرى الطبيعي ، الى غياب انماش اجتماعي .

أما الشيء الثاني الذي يجب ان نتذكره فهو أن الذكاء يشق اللغة ، ليس فقط من ناحية تطور الكائن الفرد كما رأينا في الفقرة ١٦ ، وكما أكدته مثل الصمم بكم بل أيضاً من ناحية تكون النسالة كما تثبتته الاعمال المتعددة جداً حول الذكاء عند القروود المتفوقة . غير ان الذكاء الحسي يتألف قبلاً من عدد من البنيات تملق بالتنسيقات العامة للفعل *action* (التسلسل ، دمج التصورات ، ...) والتطابقات الخ . .) ومن المستبعد اذاً اسناده الى اللغة .

وعلى هذا ، يبقى بديهياً ان اللغة اذا كانت تنشأ من ذكاء مبني جزئياً ، فانها تركب في المقابل ، ومن هنا تبدأ المشاكل الحقيقية التي لا يمكن لنا الادعاء بانها

(١) إن مؤلف فررت : *Thought Without language* (١٩٦٠) الشيق ، معيداً جداً في هذا العدد بفضل البراعة التقنية المستعملة ووفرة البرامير .

قد حدثت . لكن بفضل الاسلوبين اللذين 'تشقن' من التحليل التحويلي الذي يسمح بدراسة التمرينات النحوية (M.D.S. Braine مثلا) ، ومن التحليل العملي الذي يسمح بالتجارب على تعلّم البنيات المنطقية (« انهلدر » ، « سنكلر » « دوفوي ») فاننا قادرين في النقاط الخاصة على تحليل بعض الصلات بين النوعين من البنيات وحتى أيضا على استشفاف إلى أي مدى يوجد تفاعلية ، وأي من البنيات اللغوية أو المنطقية يبدو أنه يجر بناء الأخريات .

وعلى هذا ، عرضت هـ . سنكلر في كتاب يضم مجموعة من تجاربها النتائج التالية : شكلت أولا مجموعتين من الأطفال معتمدة كميّار لمستواهم العملي ، مقدرتهم أو عدم قدرتهم على استنتاج بقاء نفس الكمية من سائل في حال صبّها في أوعية مختلفة الأشكال : تتألف المجموعة الأولى ، وواضح بأن مقدرتها العملية لم تُكتسب بعد ، من أشخاص يتفون بقاء نفس الكمية بينما أقرت بها المجموعة الثانية مسبقاً وبررت بها ببراهين التعاكسية والموازنة . ثم حُلّلت من جهة ثانية لغة هؤلاء الأشخاص بواسطة إجراء لا يمت بصلة باختبار بقاء الكمية ، ولكن يتعلق بوصف شيئين محسوسين أو بمقارنة مجموعتين فيما بينهما : مثلا : قلم كبير مع قلم صغير ، قلم طويل رفيع مع آخر قصير غليظ ، أو مجموعة من ٤ أو ٥ كريات وأخرى من اثنتين الخ... ثم يطلب منهم تنفيذ الأوامر : « أعطني قلماً يكون أصفر » أو « يكون أصفر وأرفع » الخ... والحالة هذه ، فقد تبين أن لغة المجموعتين تختلف كلياً . كل ما يستعمله أشخاص المجموعة الأولى هو مطلقاً « *Scolaires* » (بالمعنى اللغوي) : « هذا كبير » وهذا صغير » أو « يوجد كثير » « وهذا غير كثير » الخ... أما أشخاص المجموعة الثانية ، فإنهم على العكس يستعملون خاصة « *les vecteurs* » : « هذا أكبر من الآخر » « له منه أكثر » الخ... زد على ذلك أنه في حال وجود اختلافين ، يهمل أشخاص المجموعة الأولى أحدها أو يتصرفون بأربعة جمل محورية : « هذا كبير » هذا صغير ، هذا رفيع (الأول) ، هذا غليظ » ، بينما تسجل المجموعة الثانية على

العكس ، ارتباطات مزدوجة كقولهم : « هذا أطول وأرفع ، والآخر أقصر وأغلظ » الخ .

وعلى هذا ، يوجد إذاً صلة أكيدة بين المستوى الحسابي والمستوى اللغوي ونرى دفعة واحدة ما يمكن للبنية الشفهية لأشخاص المجموعة الثانية ، من مساعدة منطقتهم . والحال يفهم أشخاص المجموعة الأولى تصير المستوى الأعلى وتسمح المراقبة بتنفيذ الأوامر والتحقق من ذلك بتفصيل . فأخضع هـ . سنكلر أشخاص المجموعة الأولى لتمرين لغوي شاق ، لكن ممكن : ثم بعد فحص جديد لفهمهم بقاء الكمية ، لم يلاحظ سوى تقدم ضئيل ، ولتقل حالة واحدة من بين حوالي عشرة .

يجب طبعاً الاكثار من اختيارات كهذه . فإذا بدى على مستوى العمليات المفهومة (راجع (الفقرة ١٢) ، أن البنية العملية تسق وتنتج البنية اللغوية لتركز بالتالي عليها ، فيبقى إذاً أن نتفحص بواسطة اجراء مماثل ما يجري على صعيد عمليات تركيب الجمل حيث تبعد لغة الأشخاص بشكل ميز في الوقت الذي يصبح فيه منطق تفكير الأشخاص « افتراضياً - استنتاجياً » - hypothetico-déductif . إذا كان بدى اليوم أن اللغة ليست مصدر المنطق ، وإذا صدق شومكي بإركز الأول على الثاني (اللغة على المنطق) فيبقى تفصيل تفاعيلها مجاًلاً لدراسات بدىء حالياً الاطلاع عليها بأساليب الاختبار والتعميد الموافق له ، والوحيدة التي يمكن أن تغني النقاش بشيء أكثر من الأفكار .

استعمال البنيات في الدراسات الاجتماعية

٦

١٨ - البنيويات الاجمالية أو المنهجية . - إذا كانت البنية نظام تحويلات له قوانينه من حيث أنه مجموع ، وله قوانين تؤمن ضبطه الذاتي ، فإن جميع أشكال الأبحاث المتعلقة بالمجتمع ، مهما اختلفت ، تؤدي الى بنيويات . ذلك ان المجموعات أو المجموعات الفرعية الاجتماعية تفرض نفسها على الفور من حيث أنها مجموع ، هذه المجموعات دينامية إذا هي مواضع تحويلات ، وان ضبطها الذاتي يُعَبَّر عنه خاصة من جراء الواقع الاجتماعي للضغوط ، بشتى أنواعها ، وللضوابط والقواعد المفروضة من قبل الجماعة . لكن بين هذه البنيوية الاجمالية والبنيوية الحقيقية ، لأنها منهجية ، يوجد على الأقل اختلافان .

الأول يتعلق بالانتقال من البروز إلى قوانين التركيب : ما زالت الجملة عند « دركام » مثلاً في طور البروز فقط ، لأنها تنبثق من نفسها عن إجتاع المركبات مؤلفة بذلك مفهوماً أول يفسر كما هو : وعلى العكس ، يعتبر « كلود ليفي شتراوس » بأن مرسيل موس مساعد دركام الحميم ، هو المعلم الأول للبنيوية الأنثروبولوجية (أو الإنسانية) لأنه فتش ، بالأخص في دراسته عن الموهبة ، واكتشف تفصيل التفاعلات التحويلية .

والاختلاف الثاني الذي ينتج عن الأول هو ان البنيوية الاجمالية تتعلق بنظام العلاقات أو التفاعلات التي يمكن ملاحظتها ، والذي يعتبر بأنه مكتف

بذاته ، في حين أن ما يخص البنيوية المنهجية هو البحث عن تفسير لهذا النظام في بنية فرعية تسمح بتفسيره تفسيراً نوعياً ما استنتاجياً ، والمقصود هو تشكيله من جديد بواسطة بناء نماذج منطقية رياضية : لاندخل السية في هذه الحالة ، وهو شيء أساسي في نطاق « الوقائع » التي يمكن الاعتراض عليها ، وتبقى لا واعية عند الأعضاء الأفراد للجماعة المقصودة (وغالباً ما يشدد ليفي شتروس على هذا الجانب) . وهنا توضيحيان مهمان جداً في علاقتها مع البنيويات الفيزيائية والنفسية : يجب إعادة تشكيل البنية الاجتماعية استنتاجياً ، مثل السببية في الفيزياء ، إذ لا يمكن اكتشافها على أساس أنها معطى . ذلك يعني أنها بالنسبة للعلاقات التي يمكن الاعتراض عليها ، مثل السببية بالنسبة للقوانين في الفيزياء : والبنية من جهة ثانية ، كما في علم النفس ، لا تنتمي إلى الوعي بل إلى التصرف ، ولا يكتسب الفرد منها سوى معرفة بسيطة بفضل حالات من الوعي غير المكتمل ، تحدث في مناسبات من عدم التوافق *désadaptations* . فإذا ابتدأنا بعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي ، وهما في عين من العلم يزداد غموض حدودهما (مثل جميع التعاليم الأكثر ارتباطاً برغبة في الاستقلالية المهنية منها بطبيعة الأشياء) ، يمكن أن نرى عند « كلفين » ، مثلاً نموذجياً من الآمال ، والتحقيقات الجزئية وميزة تداخلية التعاليم ، الضرورية لبنيوية منهجية . إنه تطبيق لـ « د. كوهلر » في برلين ، وقد شكل قبل الأوان مشروع تطبيق بنية الجشطالت على دراسة العلاقات الاجتماعية ، لذا غم مفهوم « المجال » : بينما لا تؤلف المجالات الحادثة والمعرفية بشكل عام ، بالنسبة للصينيين سوى مجموعاً للعناصر المضبوطة في آن واحد (هذا التيار الكامل الذي يضم جهاز الشخص العصبي ، ولكنه ، كما رأينا في الفقرة ١١ ، لا يضم نشاطاته الناتية عن الجهاز) . ويقترح « كلفين » مفهوماً لتحليل العلاقات الانفعالية الشعورية والاجتماعية ، إنه مفهوم « المجال الكلي » [*le champ total*] الذي يضم الشخص مع ميوله وحاجاته . لكن ليست هذه الميول والحاجات داخلية فقط ، ويشير الشيء ، تبعاً لشكل لشكل المجال الخارجي وتبعاً لقربه خاصة ، يشير تحريضات تشهد على تفاعل كامل

للعناصر القائمة . بعد ذلك ، ومستلها من الطوبولوجيا (هندسة لائكة) ، يحلل
لئين مجاله الكلي مستعملا عبارات الحوازات والاقصالات ، والحدود (المتضمنة
« الحواجز النفسية » أو الكبت والمنع من شئ الأنواع) والتفطيات والتقاطعات
الخ... : طوبولوجيا فلما تكون للأسف رياضية ، بمعنى انه لا يوجد فيها نظريات
معروفة يمكن تطبيقها على المجال الكلي لا أكثر ، غير انه يجب الاعتراف بأنها
طوبولوجيا في معنى تحليل مكاني محض كفي باستبصاراته الاساسية للتراكيب .
ویدخل « لفين » ، في المرحلة التالية ، الاتجاهات مع فائدتني وصف الكليات
عن نظرية الـ graphes والوصول الى بنیات شبكات structures de réseaux .

وقد أوجد ليفين وتلاميذه (ليبت ، وايت ومنذ مدرسة برلين ، دمبو ،
هوب وزايفارنيك) ، عن لريق هذه الاساليب البنيوية المحضة ، أوجدوا علم
نفس اجتماعي واقفالي شعوري ، عرّف تطورات كبيرة في الولايات المتحدة
وكان احد المراجع الاساسية لايبحاث عديدة حالية حول « دينامية الجماعات » .
(وما زال يوجد مع كارورايث مؤسسة مختصة لهذه الدراسات في آن اربور) .
وتقدم اليوم هذه الابحاث التي توالت بشئ التنوعات ، مثلا جيلا حول
التحليل التي ترتكز كليا على الاختيار ولكنها تعود ، عند التفسيرات ، لبناء
النماذج البنيوية ، حتى انه يوجد اختصاصيون في هذه النماذج الرياضية بما يخص
الجماعات الصغيرة (مثل « ر.د. لوس » في الولايات المتحدة ، و « كلود فلامان »
في فرنسا) .

لا شيء جدير بالذكر هنا بالنسبة لمجتمع الجماعات الصغيرة [la macroso-
ciologic] وعلم قياس العلاقات الاجتماعية [la sociométrie] لأنها إما ظلا
إجماليين كثيرا بالمعنى الذي ميزناه فيما قبل ، أي خضوع كفي للعلاقات الملحوظة
والتي لا تشكل بنية حتى لو تكررت في تعددها « الديالكتيكي » ، وإما انها
يرتكزان على أساليب إحصائية جارية تعبّر عن العلاقات بأرقام ولكنها مع
ذلك لا تصل بذلك إلى بنیات .

في مقابل ذلك، يشير طبعا علم اجتماع الجماعات الكبيرة [la macrosociologie] المسائل البنيوية الكبيرة . وسننتظر الفصل السابع للتذكير بالطريقة التي ترجم فيها «أنتور» الماركسية الى البنيوية، وهذه هنا مسألة تهم الديالكتيك كلها ولكن يجدر بنا هنا العودة الى مؤلفات بارسونس الذي يشير من جديد بأسلوبه « البنائي الوظيفي » مشكلة البنية والوظيفية (التي سبق ان عرضنا لها في الفقرة ١٣) . يجب بالفعل ذكر اسم بارسونس كخارج جزئيا عن نطاق الاتجاه الانكلو - ساكسوني العام التجريبي الذي لا يتكلم عن البنيات إلا فيما يخص العلاقات والتفاعلات الممكنة ملاحظتها . ذلك ان بارسونس بتعديده البنية كترتيب ثابت لعناصر نظام اجتماعي بعيد عن النقلات التي تُفرض عليه من الخارج ، متقاد لأن يحدد نظرية التوازن بكل دقة . وقد دفعه هذا الاتجاه الانكلو - ساكسوني إلى أن يمهّد الى مساعد أمر استنباطها . أما الوظيفة ، فالمفهوم انها تتدخل في تطابقات البنية مع الظروف الخارجية لها .

لا يمكن إذا فصل الوظيفة والبنية عن نظام كلي يمكن القول بأنه يؤمن بقاؤه بواسطة انتظامات ، والمشكلة التي راودت « بارسونس » دائما هي في كيفية دمج الافراد للقيّم المشتركة . وقدم من هذا المنظور نظرية « للفعل الاجتماعي » محللا شتى أنواع الخيارات [alternatives] التي يكون الفرد أمامها حسبما يرفض أو يتخضع للقيم الجماعية .

ويرتبط مؤلف بارسونس بمؤلف « ليفي » الذي يقصر البنيات على التشابهات الملاحظة ، والوظائف على ظهور البنيات عبر الزمن . تبدو لنا هذه العلاقات بين المتزامن والتطور (Le chronique et le dichronique) مختلفة بعض الشيء حسبما هو المقصود : معايير ، قيم (معيارية أو فطرية) ورموز بالمعنى الواسع أو اشارات (راجع الفقرة ١٤) . غير انه لا شك بان الصلة التي يقيمها بارسونس بين الوظائف والقيم عميقة جداً : في بيئة اجتماعية ، تعبر عن البنيات ، مهسها تكن لا واعية ، آجلا أم عاجلا ، معايير أو قواعد تفرض نفسها على الافراد بشكل ثابت تقريبا . لكن مها تكن مقتنمين بدوام البنيات (مسألة علينا

مناقشتها : الفقرة ١٩) يبقى انه يمكن ان يكون لهذه القواعد عمل متنوع ، مما يظهر عبر التغييرات التي تطرأ على القيم : غير ان القيم بما هي قيم ليس لها « بنية » سوى بالضبط ، بقدر ما يرتكز بعض من أشكالها على معايير معينة مثل القيم الاخلاقية . وهكذا فان الازدواجية والارتباطات معاً للقيمة والمعيار ، يؤكدان على ضرورة إعادة ربط البنية والوظيفة مع ضرورة تمييزهما أيضاً .

ان هذه المشكلة للوظيفة والبنية هي التي تسيطر على مسألة البنيات الاقتصادية عندما يحدد « ف. برتو » البنية بر « النسب والعلاقات التي تميز مجموعة اقتصادية محددة في الزمن والحيز » . وتحديدات المفهوم نفسها تبيّن اختلافها مع تحديدات البنيات التي كانت موضوع بحثنا حتى الآن . غير ان الحكمة لا تقف عند حد كون برتو يبدو حاصراً نفسه بالعلاقات الملحوظة . ويرى تتبرجن في البنية الاقتصادية « اعتباراً لميزات غير ملحوظة مباشرة تتعلق بالطريقة التي يستجيب بها الاقتصاد لبعض التغييرات » ، يُعبر عن هذه الميزات في الاقتصاد القوي [*économétrie*] بألفاظ معدلات *coefficients* و « مجموع هذه المعدلات يقدم إعلام مزدوج » : يعطي من جهة عن الاقتصاد صورة هندسية ، ويحدد من جهة اخرى ، طرق الاستجابات لبعض هذه التغييرات . ولا يسعنا إلا القول بان البنية الاقتصادية تستوجب الاشتغال إذ أنها قابلة للاستجابات هذا يعني انه لا يمكن فصلها عن الوظائف .

أما طبيعة هذه البنية ، فقد ركزناها على تحليل التوازن ، لكن عندما أصبحت المشكلة الأساسية مشكلة دينامية الدورات ، ارتأينا التلّين من المفهوم إلى معنى الاشتغال بالتحديد : اعتبر مارشال ان الحل يكون بتوسيع بنية التوازن ، كما في الفيزياء ، إلى بنية « تنقلات التوازن » [*déplacements d'équilibre*] فيما سمي كينز الى دمج المدة بشكل التنبؤات والحسابات التي للموضوع الاقتصادي في الحاضر . وكما يقول ج ح غرنجر يصبح المفهوم البنائي للتوازن ، في

هاتين الحالتين (أو غيرهما) « مديراً موجهاً » opérateur يسمح بتفسير
الدورات .

غير ان ميزة البنيات الاقتصادية لا ترتفع فقط بالأولية المعطاة للاشتغال :
بل انها تحتوي ، وبدون شك لهذا السبب نفسه ، على طابع احتمالي بالخاص ،
نتيجته عندئذ ان الضبط الذاتي للبنية لا ينجح بعمليات محصورة بل بانتظامات
تسمح بردات فعل وتوقعات تقريبية من نوعية الـ feedbacks . وتلاحظ هذه
النوعية الفردية من البنية على صعيد القرارات الفردية للشخص الاقتصادي
du sujet économique (نظرية الالعب) théorie des jeux مثلاً تلاحظ
على صعيد المجموعات الاقتصادية الكبيرة التي حلها الاقتصاد المادي . واستطاع
غرافجر القول بان نظرية الالعب كانت تدل على استبعاد العوامل النفسية ، ويصح
قوله هذا إذا لم تفكر سوى بعلم النفس المختصر قليلاً لـ بارثولوميو وباروك .
لكن عندما نتذكر دور إواليات القرارات هذه في التصرف بشكل عام (وليس
الوعي) وهذا ليس فقط على الصعيد الانفعالي الشعوري (الذي يُعبر كما برهن
جانيت عن كامل بنية économie داخلية للسلك) ، بل أيضاً على أصعدة الإدراك
والتمو المعرفي^(١) . نحن مدعوون على العكس لان نرى في نظرية الالعب
تلاحاً آمناً من ذي قبل ، بين البنيات الاقتصادية وانتظامات الشخص الانفعالية
الشعورية والمعرفية . أمسا أنظمة المفعول الارتجاعي feedbacks الكبيرة التي
يستخلصها الاقتصاد المادي من علم الاقتصاد الجمعي ، فهي معروفة بمسا في
الكفاية وأكثر ، فلا ضرورة للتشديد عليها .

تقدم البنيات التي تتعلق بالمعايير ، في مقابل القيم الطبيعية ، ميزة عملية ،
بالمعنى المنطقي للفظ ، جديرة بالملاحظة . ويعلم الجميع الطريقة التي وصف بها
كل من بنية القانون كهرم معايير ، موثوقة بواسطة علاقة تضمينية عامة بين

(١) المجالات حيث يمكن لنظرية الالعب ان تطبق بنجاح .

معايير اسمها بـ « الاتهام الكاذب » imputation وقد جعل في قتها المعيار الاساسي الذي يؤسس شرعية الكل وخاصة الدستور ، ومن هذا الاخير نستقي شرعية القوانين التي تؤسس شرعية قرارات الحكومة أو قرارات سلطة المحاكم. ولهذا السبب تكتسب « القرارات الرسمية » الصفة الشرعية وهلم جرا حتى نصل إلى تعدد « المعايير المقررة » normes individualisées ، الاحكام الجزائية ، التمييزات الفردية ، الشهادات ، الخ. لكن إذا كان بإمكان هذه البنية الجلية أن توضع على شكل شبكة جبرية (بمعنى أن كل معيار هو « تطبيق » للمعايير الأعلى) ، وذلك لا يتعلق بالمعايير الاساسية التي لا شيء فوقها ، وفي نفس الوقت انشاء « معايير أدنى منها » ، وقد لا يعني المعايير المقررة التي لا شيء تحتها ، فما هي طبيعتها عندئذ ؟

طبعاً ، سيقول علماء الاجتماع انها طبيعة اجتماعية غير أن كل من يحيب بانه لا يمكن قصر المعيار على الواقع . ثم يزيد كل من نفسه : انها طبيعة معيارية بذاتها (جوهرية) ولكن يربط المعيار الاساسي في هذه الحالة إذا كان هذا المعيار لا يصدر عن فعل « اعتراف » بإمكانية « الافراد ذوي الحقوق » لأن يضيفوا عليه شرعية ؟ ويعتقد أنصار « الحق الطبيعي » بأنها بذية مرتبطة « بالطبيعة الانسانية » بما هي طبيعة : انها حلٌ بدوي للذي يعتقد بأبدية تلك الطبيعة الانسانية ، لكنها لا تشكل سوى مجرد حلقة للذي يحاول فهمنا بالرجوع إلى تكوينها .

١٩ - بنويوة كلود ليفي شتراوس الانثروبولوجية . - اهتمت اساساً الانثروبولوجيا^(١) anthropologie الاجتماعية والثقافية بالمجتمعات البدائية حيث لا يمكن فصل السياقات النفسية الاجتماعية عن البنيات اللغوية

(١) ويقال أيضاً « لغة » أي العلم الذي يبحث في اصل الجنس البشري وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته .
- مالمرحم -

والاقتصادية والقانونية ، ومن هنا تشديدنا على هذا العلم التركيبي وذلك لتدارك
 انجاز الملاحظات التي سبقت . بما ان كلود ليقي شتراوس ، من جهة أخرى ،
 هو مجسد ذلك الاعتقاد بدوام الطبيعة الانسانية ، فإن بنيويته الانثروبولوجية
 تعرض ميزة مثالية وتشكل النموذج ، لا الوظيفي ، ولا الوراثي ولا التاريخي ،
 بل الاستقرار الأكثر ديمومة الذي أمكن استعماله في علم انساني تجريبي : ولهذا
 السبب يقتضي منا ، في هذا المؤلف ، تفحصاً خاصاً . بالفعل يبدو لنا غير معقول
 وجود صلة بين هذا المذهب للبنية كواقع أول حياة الانسان في المجتمع ، وبنيوية
 الذكاء البنائية التي توسعنا فيها في الفقرة ١٢ و ١٣ .

وتفيد لتفهم جدة الاسلوب ، رؤيته مطبقاً على الـ « pseudo - entités »
 للطوطمية totémisme التي انشأت المفهوم الرئيسي لكثير من علوم الاجتماع
 الانثوغرافية^(١) Ethnographiques وينتهي « ليقي - شتراوس » من مقطع عميق
 لدور كل من الإواليات المنطقية اللازمة لكل دين بدائي ، الى « عملية ثقافية لا
 يمكن لحصائصها بالتالي ان تكون امكناً للتنظيم المحسوس للمجتمع » (ص ١٣٨)
 ومن هنا الرفض لأولية العامل الاجتماعي على العقل intellect . هوذا المبدأ
 الاساسي الأول لهذه البنيوية التي ستبحث وراء العلاقات « المحسوسة » عن بنية
 مخفية وغير موعبة ، لا يمكن الوصول اليها إلا عبر بناء استقرائي لنماذج مجردة .
 ينتج عن ذلك نظرية مترامنة لكنها تختلف في الواقع عن نظرية علم اللغة . غير
 انها من جهة « مبررة » يجهلنا المضال لأصول الاعتقادات والتقاليد لكن ، من
 جهة أخرى ، وهنا يتنوع النظام المتزامن أقل مما يتنوع نظام اللغة ، « تُقدّم
 التقاليد على انها معايير خارجية قبل أن تكون احساسات داخلية » ، وتحدد هذه
 المعايير غير المحسوسة ، الاحاسيس الفردية كما انها أيضاً تحدد الظروف حيث يمكن
 لها ويجب عليها ان تظهر ، غير ان هذه المعايير تتعلق « بالبنيات » الدائمة .

(١) يقال ايضاً : المراقبة : وهو علم يبحث في خصائص الشعوب . — المترجم —

(١) Cl. Levi Strauss : le totémisme aujourd'hui 2me. édit. 1963

وبالتالي عندئذ ، فإن واما بهذا يُعبر بعض الشيء عن نظام تطوري ثابت أ
ولسنا نقصد طبعاً بأن ليثي شراوس يريد نحو التاريخ ؛ البنيات توجد فقط
حيث يدخل التاريخ التفسيرات ، وهي هذه المرة بنيات تطويرية^(١) لكنها لا
تتعلق بالعقل الانساني .

وبما يخص هذا الأخير ، فالتاريخ « لازم » لإحصاء جملة عناصر أية بنية ،
انسانية أو غير انسانية . وبعبارة عن ان يوصل البحث عن المعقولة
intelligibilité إلى التاريخ او إلى نقطة انطلاقه ، فالتاريخ هو الذي يلعب دور نقطة
الانطلاق لكل بحث عن المعقولة . . . والتاريخ يوصل إلى كل شيء شرط الخروج
منه » (من كتاب : « الفكر الجمعي : la pensée sauvage » ص ٣١٧ -
٣١٨) ، ومن البديهي ان يكون موقف كهذا مضاداً للوظيفية
antifonctionnalisme على الأقل بالنسبة للنظورات مثل منظور ملينوفسكي ،
بيولوجي وسيكولوجي أكثر منه اتولوجي ، « أي « طبيعي » ونفسي
واقفالي شعوري » (الطوطامية ص ٨٢) . فإذا عدنا إلى بعض النماذج المنتشرة
من التفسير المستوحى من الفردية ، نفهم لماذا يبدو أن ليثي شراوس ينسب
أحياناً حصراً ، مثل هذا ، إلى القدرات التفسيرية للبيولوجيا ولعلم النفس .
يجب بالفعل أن « نصفق » لهذه الملاحظات التقريرية حول التفسيرات بالانفعال
الشعوري « الجانب الأكثر غموضاً في الانسان » والتي تنسى بأن ما هو مضاد لا
ينفع لهذا السبب أن يكون في خدمة التفسير . ولا يمكن لنا أيضاً إلا أن « نسر »
لبروية ليثي شراوس « بعيد » عن الترابطية التي ما زالت حية للأسف في بعض
الأوساط : « والذي يُفيسر قوانين الترابط هو منطق التقابلات والارتباطات ،
الاستبمادات والانتهاءات ، الإنسجامات والتضادات لا العكس ؛ ويجب على الترابطية
المجددة ان تتأسس على نظام عمليات مشابهة لجبر بول Algèbre de Boole
ص ١٣٠) . لكن إذا امكن هكذا ، رؤية « سلسلة ارتباطات منطقية تجمع

(١) « إن البنيات التطورية والزمانية توجد في قانوننا » في كتاب :

(1962) Sens et usages du terme Structure .

العلاقات الفعلية ، (ص ١١٦) ، وإذا كان المسج النهائي ، في جميع المجالات ، يقوم على إعادة دمج المضمون بالشكل ، (ص ١٢٣) فإن المسألة تبقى في تنسيق البنيوية الاجتماعية أو الانثروبولوجية ، عاجلاً أم آجلاً ، مع البنيويات البيولوجية والنفسية التي لا نستطيع ان نتغلى عن الطابع الوظيفي على أي مستوى كان .

بما يخص البنيات المستعملة من قبل ليفي شتراوس ، يعلم كل واحد انه تمكن بالإضافة الى البنيات اللفظية وحق السوسورية عامة ، من إيجاد البنيات الجبرية من نوع الشبكات ومجموعات التعريلات والخ ... في مختلف نظم القرابة واستطاع تشكيلها بمأونة رياضيين مثل أ. وايل ، وج. ت. جيلبو . لا تنطبق هذه البنيات على القرابة فقط : بل يمكن العثور عليها في انتقال من تصنيف الى آخر ومن اسطورة الى اخرى ، واختصار ، في جميع التطبيقات او النتائج المعروفة للحضارات المدرسية .

ويسمح نصان اساسيان فهم المعنى الذي اعطاه ليفي شتراوس لبنياته في تفسير انثروبولوجي كهذا :

إذا كان النشاط اللاواعي للذهن يشتمل على فرض الأشكال على المضمون ، مثلاً نستخدم نحن ، وإذا كانت أساساً هذه الاشكال هي نفسها لجميع الازمان ، القديمة والحديثة ، البدائية والمتقدمة - كما تبينه دراسة الوظيفة الرمزية بكثير من الوضوح في تعبيرها عن نفسها عبر الكلام - فيجب وبكفي الوصول إلى البلية غير المتوعية الكامنة تحت كل مؤسسة وتحت كل تقليد وذلك للحصول على مبدأ للتفسير يصبح مؤسسات اخرى وتقاليد اخرى ، شرط ان ندفع بالتحليل ببدأ ، وهذا أمر طبيعي ، (الانثروبولوجيا البنائية - ص ٢٨) .

لكن هذا الذهن الانساني الثابت او « النشاط اللاواعي للذهن » ، يحتمل في فكر ليفي شتراوس موقفاً محدداً ، ليس هو بفطرية شومسكي ولا هو بالأخص « التجربة المعاشة » التي من المفروض التخلي عنها « مع احتمال إعادة دمجها في تركيب موضوعي بعد ذلك » من كتاب : *tristes tropiques* (ص ٥٠) بل انه

نظام من التصورات محصور بين البنيات التحتية والبنيات الفوقية : « غالباً ما عقلت الماركسية - إن لم يكن ماركس نفسه - كالموأت التطبيقات تنتج مباشرة عن الممارسة . وتعتقد ، دون التعرض الى الأولية الاكيدة للبنية التحتية ، بأنه يتدرج دائماً بين الممارسة والتطبيق وسيط بشكل البنية التصورية التي بفضل عمليتها ، تكتمل المادة والشكل اللذان حرما من وجود مستقل أي على غرار كائنات تجريبية ومعقولة في آن معاً . وستقتصر مساهمتنا على هذه النظرية للبنيات الفوقية التي لمح إليها ماركس ، عاهدين الى التاريخ - تعاونه في ذلك الديموغرافيا والتكنولوجيا والجغرافيا التاريخية والاتوغرافيا - امر تطوير دراسة البنيات التحتية ، بحصر المعنى ، التي لا يمكن لها ان تكون دراستنا الاساسية نحن ، ذلك أن الاتولوجيا هي ، قبل أي شيء ، علم نفس » (la pensée sauvage ص ١٧٣ - ١٧٤) .

تصبح المسألة الرئيسية التي يثيرها هذا المذهب الواسع ، وذلك بعد أن نكون قد سلمنا بوجود البنيات التي لا تختلط إذاً ، رغم (العالم الاتوغرافي الانكلو - مكسوني رادكليف براون الذي كان أكثر من تقرب منها) مع نظام التفاعلات الملحوظة ، هي مسألة فهم ماهية هذا الوجود . وليس هذا الوجود مطلقاً ، وجوداً شكلياً عائد للمنظر الذي يرتب نماذج من تلقاء إرادته ، إذ توجد هذه البنيات خارجاً عن تلك الارادة وتشكل مصدر العلاقات المكتشفة ، الى درجة تعقد معها البنية ، دون هذا التوافق الوثيق مع الوقائع ، كل قيمة حقيقية . كما ان للبنيات ليست « جواهر » صورية ذلك ان ليفي شتراوس ليس فينومينولوجياً ولا يؤمن بالمدلول الأولي لـ « الأنا » أو لـ « التجربة المباشرة » . اما الصيغ التي تماود بلا انقطاع فهي انما تصدر عن « العقل » او عن عقل إنساني بمائل دوماً لنفسه ، ومن هنا أوليتها على العامل الاجتماعي (على عكس « أولية العامل الاجتماعي على العقل » الذي ينتقده عند دركام) وعلى العامل العقلي (ومن هنا التسلسلات المنطقية التي تربط فيما بين العلاقات العقلية) وبالأحرى على الجهاز العضوي Organisme الذي يفرض به بحق تفسير الانفعال الشعوري ولكنه

ليس مصدر البنيات) . غير ان المسألة تزداد حدة : ما هو غلط وجود العقل
او الذهن ان لم يكن اجتماعياً او عقلياً او عضوياً ؟ .

ان تترك المسألة دون جواب فهذا يعود للحديث عن بنيات طبيعية لا أكثر
لكنها تذكرنا ، وبكل غضب ، بر « الحق الطبيعي » الخ ... والحال انه
بالامكان تبيان الجواب . فاذا كان من الضروري إعادة دمج المضمين بالاشكال ،
كما يقول صراحة ليفي شتراوس ، فليس اقل ضرورة التذكير بأنه لا يوجد ،
بالمعنى المطلق ، لا اشكال ولا مضمين ، بل أي شكل في الواقع كما في
الرياضيات ، هو مضمون للاشكال التي تشمل ، وأي مضمون هو شكل
للمضمين التي يحوي . غير ان هذا لا يعني (كما رأينا في الفقرة ٨ بأن كل شيء
يكون « بنية ») ويبقى أن نفهم كيفية الانتقال من هذه الشمولية للاشكال
الى وجود البنيات الأكثر تحديداً لانها محدودة أكثر .

يجب التحقق أولاً من أنه إذا كان ، من هذا المنظور ، كل شيء قابلاً لِلْبِنْيَةِ
فلن نوافق إذا البنيات بالاضافة الى ذلك سوى بعض « اشكال » بين أخرى
خاضعة للمعارات المجردة لكنها قابلة خصوصاً لأن تتشعب جلات لها قوانينها
بما هي قوانين نظام ، وتقرض هذه القوانين بالتحويلات وبالأخص تؤمن للبنية
استقلالها وضبطها الذاتي ولكن كيف تتوصل « اشكال » ما إلى أن تتنظم بهذه
الطريقة على شكل بنيات ؟ عندما يتعلق الامر بالبنيات المجردة للعلم المنطقي
Logicien او الرياضي ، فإن هذه الأخيرة هي التي تستخرج البنيات من
الاشكال . غير انه في الواقع يوجد سياق تكويني عام ينتقل من الاشكال الى
البنيات ويؤمن الضبط الذاتي الملازم لها : وسياق الموازنة هو الذي يحدد ، في
المجال الفيزيائي ، موقع نظام من مجموع اعماله الافتراضية Virtuels
(راجع الفقرة ٩) ، وهو الذي يؤمن ، في المجال العضوي ، ال Homéostasies
من جميع المستويات للكائن الحي (راجع الفقرة ١٠) وهو الذي يتحقق في
المجال النفسي من تطور الذكاء (راجع الفقرة ١٢ - ١٣) وهو الذي في المجال

الاجتماعي يمكنه تأدية خدمات ماثلة . وبالفعل إذا تذكرنا بأن كل شكل توازني يضم نظام تحويلات افتراضية تشكل فريقاً ، إذا ميزنا حالات التوازن والموازنة كسياق ينزع نحو هذه الحالات ، فيحلل هذا السياق ليس فقط الانتظامات التي تتبع مراحلها ، بل أيضاً شكلها النهائي أي التقابلية العملية . وتحوي أذن موازنة الوظائف المعرفية أو العملية على كل ما هو ضروري لتفسير التصورات العقلانية : نظام تحويلات مضبوط ، وانفتاح على الممكن ، أي شرطية الانتقال من التكوين الزمني la formation temporelle إلى الرباطات اللازمة interconnexions intemporelles .

ولا تعد المشكلة من هذا المنظور مشكلة تقرير مسا إذا كانت الأولية (أو السابقة) للعامل الاجتماعي على العامل العقلي ، بل العكس العقل الجماعي هو العامل الاجتماعي الموازن بفضل لعبة العمليات التي تتدخل في جميع co-opérations . وكذلك فإن الذكاء لا يسبق الحياة العقلية ولا ينحدر منها كمجرد ناتج بين آخرين : أنه شكل التوازن لجميع الوظائف المعرفية - تغدو العلاقات بين العقل والحياة العضوية من طبيعة واحدة . فإذا كان لا يمكن القول بأن أي سياق حيوي هو سياق « معقل » ، فيمكن الأخذ بأن الحياة ، في التحويلات التشكلية morphologiques التي سبق أن درسها آرسى تومسون (Growth and form) منذ زمنين وهو مؤلف أثر في ليقي شتراوس مثل دراسته عن علم المعادن) هي حياة هندسية ، ونستطيع ان نذهب اليوم في التأكيد بأنه يعمل ، في نقاط عديدة جداً مثل آلة أحيائية Machine Cybernétique أو « ذكاء اصطناعي » . لكن من هذا المنظور ماذا يصبح العقل الانساني المماثل لنفسه دائماً ، يقول ليقي شتراوس : ليكن البرهان استمرارية « الوظيفة الرمزية » ؟ ونعترف بأننا لم نفهم جيداً ما الذي 'يبقي هذا ' العقل esprit « أفضل تعزيزاً إذا جعلنا منه مجموعة تصورات دائمة عوضاً عن نتاج مستمر لبناء ذاتي متواصل . ألا يمكن في حال اكتفائنا بالوظيفة الرمزية ، مع القبول بالتمييز السوسوري للشارة والرمزية du signe et du symbole (وهو تصنيف يبدو لنا اعنى

من تصنيف بيرس^(١) ، بأن تفكر بوجود تطور من الرمز المجازي الى الشارة التحليلية ؟ هذا هو معنى مقطع لروسو حول الاستعمال البدائي للاستعارات tropes يذكره ليفي شتراوس ، مع الموافقة عليه ، في سياق كلامه عن «الشكل الأولي للفكر الاستدلالي *pensée discursive* : إلا أن كلمة «أولي» تستتبع تكة أو على الأقل مستويات ؛ ولو أن «الفكر الحمجي» ما زال حاضراً بيننا ، تشكلت مستوى أدنى من مستوى «الفكر العلمي» : والحال أن المستويات المتدرجة تستتبع مراحلاً في التكوين . ويمكن أن تتعامل خاصة عما إذا لم تكن والتصنيفات البدائية ، الجنية التي يتكلم عنها ليفي شتراوس في «الفكر الحمجي» تناجاً «لتطبيقات» بدلاً من تكتلات بالمعنى العملي (راجع الفقرة ١٢) .

أما بما يختص بمجموع هذا المنطق الطيبي فالتناغم التعارض المبدئي العام بين بنوية ليفي شتراوس ووضعية ليفي برول . ويبدو أن هذا الأخير قد تفلس كثيراً بعد وفاته كما تقلصت أعماله الأساسية : لا يوجد «عقلى بدائية» لكن ربما يوجد قبل منطقية بمعنى مستوى سبق عملي أو مستوى محدوداً في بدايات العمليات المحسوسة فقط (راجع الفقرة ١٢) . والمشاركة مفهوم مفيد جداً شرط أن ترى فيها ليس صلة وهمية لاتأخذ بعين الاعتبار التناقض والتوافق ، بل علاقة تكثر عند الطفل الصغير ، وتبقى في منتصف الطريق بين العالم والفردي : *ombre* الذي نقيمه على الطاولة ليس ، في حوالي الأربع والخمس سنوات ، سوى «طفل ما تحت الأشجار» أو ظل الليل ، وذلك ليس بسبب تضمنين في فئة عامة ولا حتى بسبب نقلٍ حيزي مباشر (رغم ما يقوله الشخص) ، لكن بفضل التحام فوري بين أشياء 'تفصل' فيما بعد ثم 'تجتمع' في فئة ، وذلك بعد أن يفهم القانون . وحتى إذا لم ترى في المشاركة إلا «فكراً

(١) *Index* (وهو سببياً من نوع الدلول) ، الرمز (السبب) والشارة (الاعتبارية) ، وهذه الأخيرة اجتماعية بالضرورة لأنها اصطلاحية ، بينما يمكن الرمز أن يكون فردياً (في الإسلام الخ ...) . كان بيرس يقابل *indice* بالبطونة (الصورة) والرمز (الشارة) لكنها مرتبطة بالشيئين الأولين (راجع الفقرة ١٤) .

pensée analogique فإن لها فائدتها بما هي قبل منطقية وذلك في المتعنين :
معنى سابق للمنطق الواضح ومعنى التحضير لبلورته .

وتظهر ، دون شك ، انظمة القرابة التي وصفها ليفي شتراوس بمنطق أكثر
تماسكاً . لكن من البديهي ، وخاصة بالنسبة للملم الأنتوغرافي ان لا تكون
نتيجة اختراعات فردية (لليفيسوف الهبي) تايلور ، ولم يجعلها ممكنة سوى
بلورة جماعية طويلة . إذا المقصود مؤسسات ، وهكذا فإن المسألة هي نفس
المسألة التي طرحت للبنيات اللغوية التي تفوق قدرتها قدرة معدل التكليف^(١) .
وإذا كانت مفاهيم الانتظام الذاتي او الموازنة الجماعية تقدم أدنى معنى ، فن
الواضح بان الرجوع الى النتائج الثقافية المبلورة لا يكفي للحكم على منطق أو
بمنطق اعضاء مجتمع معين : وتدعو المشكلة الحقيقية مشكلة استعمال مجموع
هذه الادوات الجماعية في طرق التفكير المتداولة لحياة كل واحد . غير انه يمكن
ان تكون هذه الادوات من مستوى يفوق بشكل ملموس مستوى هذا المنطق
اليومي . يذكرنا ليفي شتراوس بحالات حيث يحسب الهنود بدقة العلاقات
المفروضة في نظام قرابة ما^(٢) . غير ان ذلك لا يكفي ، لان هذا النظام قد
انتهى ، وهو مضبوط قبلاً وذا مستوى متخصص ، بينما نود ان نشهد اختراعات
فردية . ونعتقد إذا من جهتنا ان المسألة تبقى مطروحة طالما لم يتم بطريقة
منهجية بابحاث دقيقة حول المستوى العملي (بالمعنى الذي ورد في الفقرة ١٢)
لكبار والأطفال مجتمعات متنوعة .

غير انه يصعب القيام بهذه الابحاث لانها تفترض تكويناً نفسياً جيداً حول
تقنيات الفحص العملي (مع حوار حر وليس بتوحيد للنمو حسب طريقة الروائر
tests ، ولا يمتلك جميع علماء النفس مثل هذا التكوين) ، وتفترض ايضاً
معلومات أنتوغرافية كافية واتقان تام للغة الاشخاص . واتنا لا نعرف سوى
(١) لا تعلمنا بنات مؤرخة *téramitière* بشكل مشترك عما هي عليه هذه التواريخ
في اوضاع اخرى .
(٢) هندي أميري الذي وصفه ليكون ص ٢٢٢

محاولات قليلة من هذا النوع وقد اقيمت احدها حول « الأروتيس » الاستراليين الشهيرين ، والنتيجة : تأخر منهجي في تكوين مفاهيم بقاء لنفس الكمية (بقاء كمية من سائل نقلت الى اثناءات مختلفة الاشكال) ، لكن مع اكتساب طبعاً ، بما قد يظهر في حالات خاصة إمكانية الوصول الى أول درجات مستوى العمليات المحسوسة . قد يبقى هنا فحص العمليات الافتراضية (التركيبية ... الخ ...) وبالاخص لدراسة مجتمعات كثيرة اخرى في وجهات النظر هذه .

أما بما يخص الطابع الوظيفي للبنىات فيبدو صعباً غض النظر عنها طالما سلطنا بجانب من البناء الذاتي . إذا كانت عوامل الفائدة لا تفسر وحدها تكويناً بنيوياً فإنها تثير بعضاً من المسائل التي يقدم هذا التكوين جواباً عليها وتقرب بالتالي ما بين التكوين والجواب « راجع الفقرة ١٠ حول أفكار ودنغتون » . ومن جهة أخرى يكثر أن تقع بنية ما وظيفتها حسب الحاجات الجديدة التي تطرأ على المجتمع .

وبكلمة ، لا تؤدي أي من هذه الملاحظات التي سبقت الى التشكيك في الجوانب الإيجابية ، أي البنائية خاصة من تعاليل ليفي شتراوس ؛ فهي لا تهدف إلا الى إخراجها من انعزالها الساطع . لأنه إذا ركزنا فوراً في حالات الانعجاز ، فإننا ناسى الميزات ، وقد تكون هذه الميزات الأكثر خصوصية من النشاط الإنساني وحتى في جوانبه المعرفية : توصل الانسان ، على خلاف كثير من الأجناس الحيوانية التي لا يمكن لها ان تتغير الا بتغيير جنسها ، الى تحويل نفسه بتحويل العالم والى بنية نفسه عبر بناء البنيات دون ان يتلقاها من الخارج ولا من الداخل بمقتضى قدر لا زمني *prédestination intemporelle* . ليس تاريخ الذكاء « بقائمة عناصر » ، انه مجموعة تحويلات لا تختلط مع تحويلات الثقافة ولا مع تحويلات الوظيفة الرمزية ، لكنها بدأت قبلها بكثير وأولدها ، وإذا كان العقل لا يتطور دون سبب لكن بمقتضى ضرورات داخلية تفرض نفسها بالتتابع مع تفاعلها مع البيئة الخارجية ، فقد تطورت ، بعد كل حساب ، من الحيوان الإنساني الى اتولوجيا ليفي شتراوس البنيوية .

٢٠ - البنوية والديالكتيك . - لن نتعرض بالبحث في هذا الفصل إلا لمسألتين أثرتا بمناسبة الأبحاث البنوية .

وكان يمكننا إطالة اللائحة إلى ما لا نهاية ، لأن الموضة ما ان استولت عليها حق لم يمد هناك فيلسوف جديد إلا وتبعها ، والتجديد الذي أتت به الموضة ينسب قدم الطريقة في ميدان العلوم المهمة بسهولة في بعض الفلسفات .

١ - والمسألة الأولى من مسألتينا الاثنتين تعرض نفسها بالتأكيد ، لأننا ، بمقدار ما تتعلق بالبنية ، بتخفيضنا قيمة الأصل والتاريخ والوظيفة ، عندما لا يكون نشاط الشخص نفسه ، بمقدار ما ندخل عندئذ بدورها ، في صراع مع الميول الأساسية للفكر الديالكتيكي . فن الطيبي إذا ، والمفيد كثيراً بالنسبة إلينا أن نرى ليفي شتراوس يكرس هذا الفصل الأخير من كتابه « الفكر المجعبي la pensée sauvage » لمناقشة كتاب « نقد الفكر الديالكتيكي » لجان بول سارتر . ويبدو ضرورياً هنا استعراض هذا النقاش نظراً لأن عركيه الاثنتين ، يبدو أنها ليسا حقيقة أساسية ، إلا وهي أن البنوية كانت دائماً متضامنة مع بنائية constructivisme لن نستطيع أن نرفض ميزتها الديالكتيكية ، مع كل ما تحمله هذه الميزة من الإشارات المميزة للتطورات التاريخية ، لمسارضة الأضداد والتجاوزات ، ، بصرف النظر عن فكرة الجملة المشتركة بين الميول الموصوفة

بأنها دياكتيكية بقدر ما تكون بنيوية . وتشكل النظرية البنائية ولازماتها النظرية التاريخية ، اللتان يستعملها سارتر في أبحاثه ، المركبات الأساسية لفكر الديالكتيكي . بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة يشير ليفي شتراوس ، إلى جانب تقدم العام للتاريخ الذي تكلمنا عنه ، إلى الصعوبات التي توجد في فكر سارتر الذي يتركز على « الأنا » أو على « النحن » بأنه مجرد « أنا » من القوة الثانية . وهذا الأنا متعلق بدوره بإحكام على « أنوات » (جمع أنا) أخرى (الفكر المجعي) . ولكن هذه الأفكار عند سارتر لا تشكل نتاجات دياكتيكية ، بل بقايا وجودية لم تستطع الديالكتيك بقيت فلسفية ، أن تحيها ، بينما يؤدي سياق الصياغة الديالكتيكية بالعكس ، إلى الوضع ضمن تبسادية للنظرات في ميدان الفكر العلمي . أما فيما يتعلق بالبنيوية ، فنندافع عنها ضد اعتراضات ليفي شتراوس ، ولكن بشرط أساسي هو أن سارتر (ما عدا بعض الاستثناءات) يعتبر أن البنيوية تشكل وفقاً على الفكر الفلسفي لأنها متميزة عن المعرفة العلمية ولأنها تعطي عن هذه الأخيرة صورة مستعارة ، تقريباً بشكل شبه كلي ، من النظرية الوضعية ومن طريقتها التحليلية .

ولكن ليس فقط أن الوضعية ليست العلم الذي تعطينا عنه صورة مشوهة قطعاً ، ولكن الوضعيين في الفلسفة ، كما حدد ذلك ميرسون ، غالباً ما يحصرون هذا الاعتقاد بتصريحات الإيمان المعروضة في قوطاتهم ، ويعملون غالباً بعكس ما تنادي به هذه العقيدة ، وذلك ما أن يوسعوا تحاليلهم الاختبارية ونظرياتهم للتفسيرية : أن تنهمهم بنقص الوعي أو بالنظرية الملومية شيء ، وأن تمثل عملهم بالوضعية فذلك شيء آخر .

هذا من ناحية ، من ناحية أخرى نجد أن الروابط التي أثبت وجودها شتراوس بين العقل الديالكتيكي والفكر العلمي تبقى على درجة مقلقة من التواضع بالنظر إلى متطلبات الفكر العلمي ، وتجبرنا هذه الروابط أن نعيد إلى السياقات الديالكتيكية دوراً لم تكن تحمل به . زد على ذلك أنه يبدو واضحاً ،

أنه إذا كان ليفي شراوس لم يقدر هذه السياقات حق قدرها ، فهذا راجع إلى ميزة بنيوية الجامعة نسبياً وغير التاريخية والتي ليست لصالح ميول البنيوية بشكل عام .

إذا فهمنا ذلك جيداً فإن ليفي شراوس يجعل من العقل الديالكتيكي عقلاً « مركباً دائماً » (الفكر الهيجلي) ، ولكن بمعنى « شجاع » أي يبني الجسور ويتقدم بعكس العقل التحليلي الذي يُفصل لكي يفهم وبالأخص لكي يراقب .

ولا نكون قد شدنا على الكلمات إذا قلنا ان هذه التكاملية (العقل الديالكتيكي ليس فقط العقل التحليلي بل شيئاً أكثر من ذلك) تجعلنا نلتحق بإحدى الوظائف ، وظائف الاختراع أو التقدم التي تنقص لهذه الأخيرة مخصصين لها الضروري من التحقيق . وبطبيعة الحال ، فهذا التفريق ضروري ، ومن الطبيعي أيضاً أنه لا يوجد عقلان بل وضمان أو نوعان من « الطرق » (بالمعنى الكارترزي للكلمة) يمكن أن يتبناهما العقل . ولكن البناء الذي يتطلبه الموقف الديالكتيكي لا يقوم فقط على « بناء الجسور » على هاوية جهلنا هذه الهاوية التي يبعد طرفها الآخر دائماً : هذا البناء يتطلب أكثر لأنه غالباً ما يولد بنفسه النفي المتفق مع الإيجاب لكي يعود فيجد التماسك في تجاوز مشترك . هذا النموذج الهيجلي أو الكانطي ليس مجرد نموذج مجرد أو تصوري محض وإلا فإنه لا يثير اهتمام العلم ولا البنيوية ، انه يحدد طريقاً محتوماً للفكر ما ان يحاول هذا الفكر الاعتماد عن الخطأ المجرد . في ميدان البنيات يناسب هذا النموذج سياقاً تاريخياً يتكرر من دون انقطاع وقد وصفه بإشلارد ، في أحد أهم كتبه ، فلسفة اللا philosophie du non والمبدأ يرتكز على الفكرة التالية : يجب أن ننفي إحدى ميزات البنية إذا كانت هذه الميزة أساسية أو على الأقل ضرورية ، إذا كنا قد أقمنا بناء هذه البنية . مثلاً على ذلك بما أن الجبر التقليدي هو جبر تبادلي فقد بنيت منذ هاملتون علوم الجبر ليست تبادلية ، كما أضيف إلى الهندسة الاقليدية هندسات غير اقليدية ، وكل المنطق المزودج الذي يرتكز على

الـ tiers-exclu معلوم للمنطق متعددة الفعالية عندما نقى « بروبر » قيمة هذا المبدأ في حالة المجموعات اللامتناهية ... الخ.

وفي ميدان البنيات المنطقية الرياضية ، فقد أصبح من الطرق المتبعة ، إذا انطلقنا من بنية معروفة ، أن نبحث عن نظام نقى نبني بواسطته نظاماً مكملاً أو مختلفاً نستطيع بعد ذلك جمع في بنية مركبة شاملة. ولم يبق إلا أن ننفي النقي نفسه كما فعل « غريس » في كتابه « المنطق بدون نقى ». ومن ناحية أخرى عندما يطلب منا أن نحدد إذا كان النظام سـ بـ والعكس ، كما في العلاقات بين الأعداد الترتيبية أو الأعداد الأصلية بين التصور والحكم ، يمكننا أن نتأكد أن وراء الأسبقيات أو التدرجات الخطية ، سيأتي دور التفاعلات أو الدوائر الديالككتيكية .

وبالرغم أن هذا الموقف يشتق مما كان يسميه كانط « التناقضات الحقيقية » أو الواقعية ، يمكننا أن نجد في ميدان العلوم الفيزيائية والبيولوجية موقفاً مقارناً: هل يجب أن نذكر بالتأرجحات بسين المفهومين ، المفهوم الجسمي corpusculaire والمفهوم التموجي ondulatoire لنظريات الضوء ، أو نذكر بالتبادلات بين السياقات الكهربائية والمغناطيسية التي قدمها « ماكسويل » في هذه الميادين كما في ميادين البنيات المجردة ؟ يبدو واضحاً أن الموقف الديالككتيكي يشكل مظهراً أساسياً لإعداد البنيات ، مظهراً تكاملياً وغير منفصل حتى عن التحليل التعقيدي في نفس الوقت . وهذا الشيء الزائد الذي يمنعه إياه ليفي شتراوس ببخل ، يقوم على أكثر من وضع الجسور ، ويعود بلا شك إلى إبدال التاذج الخطية بمعاور فيما يتعلق باللولب أو بالحلقات غير المفرغة القريبة الصلة بالدوائر الوراثية أو التفاعلات الخاصة بسياقات التطور .

٢ - هذا يعيدنا إلى مسألة التاريخ وإلى الطريقة البنيوية التي حلل بها « التوسير » ومن ثم « غودلييه » أعمال كارل ماركس بالرغم من الدور الذي يعطيه للتطور

التاريخي في تحليلاته الاجتماعية . وفضلا على ذلك ، اذا كان هنالك مظهر بنيوي عند ماركس ، فانه يؤدي على الأقل الى نصف الطريق مما سمينه « بالبنيات الشاملة » (في الفقرة ١٨) وما يشكل البنيات بالمعنى الانثروبولوجي الحديث . وهذا يعني لانه يفصل بين البنيات التحتية وبين البنيات الفوقية الايدولوجية ، ويصف الاولى بكلمات واضحة مع كونها وصفية قادرة على حملنا بعيداً عن العلاقات الظاهرية .

والهدفين الشرعيين اللذان يضعهما « التوسير » نصب أعينه في مؤلفاته التي تشكل علومية للماركسية هما : استخلاص الديالكتيكية الماركسية من ديالكتيكية هيغل وإعطاء الاولى شكلاً بنوياً عصبياً .

بالنسبة للنقطة الاولى يعطينا « التوسير » ملاحظتين هامتين (يستخلص منها نتيجة لن نستطيع أن نُمَلِّقَ عليها ، وتعلق بالميزة القابضة للمناقشة لقضية الهيغلية عند ماركس الشاب الذي يُقَدَّرُ أنه قد انطلق على الأرجح من مسألة مستوحاة من كانط وحق من فيخت Fichte) .

الملاحظة الأولى تتزامن مع الثانية وتقضي بأنه بالنسبة للماركسية وبمعكس المثالية ، يعتبر الفكر إنتاجاً production أي نوعاً من الممارسة النظرية pratique théorique والذي لا يشكل عملاً فردياً بقدر ما يشكل نتيجة تفاعلات ضمنية حيث تدخل العوامل الاجتماعية والتاريخية : ومن هنا تفسير هذا القطع المشهور لماركس حيث تعتبر « الجملة الحسية » بالحقيقة إنتاجاً للتفكير وللتصور . اما الملاحظة الثانية التي سنأخذها من « التوسير » فنقول بأن التناقض الديالكتيكي عند ماركس لا يتعلق مطلقاً بالتناقض الديالكتيكي عند هيغل الذي يقتصر بالنهاية على تطابق بين الأضداد .

هذا التطابق هو نتيجة « لتحديد تضافري » surdétermination أي إذا فهمنا جيداً ، هو نتيجة لعبة من التفاعلات غير المنفصلة . كما يبين « التوسير » ، بحجة قوية ، الفرق بين مفهومي الجملة عند ماركس وعند هيغل .

عند ذلك أدى هذا التحدد التضافري الذي يعادل على الصعيد الاجتماعي بعض أشغال السببية في الفيزياء، أدى «بالتوسير» إلى إدراج التناقضات الداخلية لعلاقات الإنتاج أو التناقضات بين هذه العلاقات وبين قوى الإنتاج، وبطريقة أعم إدراج كل الجهاز الاقتصادي الماركسي ضمن نظام من البنيات التحويلية، يحاول بجاهد إعطاءه المفصلات ومبادئ، التعقيد.

وقد اقتنعت «التوسير» لشكلته، غير أن ذلك يشكل لوماً شائماً من غير أساس يُوجّه عادة لكل بنىوية مجردة. وقد عورض التوسير فيما ظهر للبعض وكأنه تقدير بأقل من الحقيقة، للموضوع الانساني. ولكن إذا تمسكنا بقم «الشخص» (التي تجانب في بعض الوقت للأسف الأنا الشخصي) أقل مما تمسك بالنشاطات البناءة للفعل والموضوع العلومي فإن تحديد المعرفة كإنتاج، يتطابق مع أحد تقاليد الماركسية الأكثر صلابة. أما فيما يتعلق بالعلاقات بين البنيات والتحويلات التاريخية، يبين غودليه، في ملاحظة شديدة الوضوح^(١)، العمل الذي بقي علينا إعطاؤه: إذا قارنا البنيات الاجتماعية بالفئات، (مجموعات أشياء وصلات ممكنة بينها) (راجع آخر الفقرة ٦) يمكننا أن نحدد ما هي الوظائف المسموحة أو غير المتفقة مع البنية. ولكن يبقى فيما يتعلق بمجموعة البنيات التي تشكل نظاماً، أن نفهم كيف أن طرف الربط بين البنيات «تحت» داخل إحدى البنيات المرتبطة وظيفية مهيمنة، ويبقى التحليل البنوي ضمن هذا الاعتبار، بحاجة إلى الإثبات ولكن بعلاقة ضيقة مع التحويلات التاريخية والورائية. صحيح أن غودليه (الذي أكمل بشكل رائع تحليل «التوسير» المتعلقة بالتناقض عند ماركس) يشير ضمن هذا الاعتبار إلى «أسبقية دراسة البنيات على نشأتها وعلى تطورها»، ويلاحظ أن ماركس نفسه اتبع هذه الطريقة بتعديده نظرية القيمة في أول كتاب «رأس المال». زد على ذلك أننا رأينا في الفقرتين (١٢ و ١٣) أنه، حتى في الميدان النفسي الوريثي،

Godelier. Système, Structure et contradiction dans le capital (١)

لا يستبر الأصل إلا مروراً من بنية الى بنية أخرى بالإضافة الى ان هذا المرور يفسر الأخرى كما أن معرفة الاثنين ضرورية لفهم المرور عندما نعتبره تحويلاً .

ولكن ذلك يؤدي الى نتيجة من المفيد ذكرها ، لأنها تلخص اعتراضاتنا على لبقي شتراوس أكثر مما تلخصها الأفكار العامة في هذا المؤلف بكامله .

« يصبح من المستحيل تقديم الانثروبولوجيا كتحدٍ للتاريخ ، أو تقديم التاريخ كتحدٍ للانثروبولوجيا ، المقابلة بلا طائل بين علم النفس وعلم الاجتماع أو بين علم الاجتماع والتاريخ . وبالنسبة تركيز إمكانية العلوم الإنسانية على إمكانية اكتشاف قوانين العمل والتطور والاتصال الداخلي للبنى الاجتماعية ، وبالتالي تركيز على تصميم طريقة التحليل البنيوية التي أصبحت قسادة على تفسير شروط التغير والتطور للبنى ولوظائفها » (ص ٨٦٤) . البنية والوظيفة ، الأصل والتاريخ ، الشخص الفرد والمجتمع ، كل هذه المفاهيم تصبح عندئذ غير متفصلة في بنيوية هذا مفهومها وذلك بمقدار ما تتقن أدواتها التحليلية .

بنيوية دون بنيات . — يقدم لنا كتاب « فوكو » ، « الكلمات والأشياء » *les mots et les choses* ، بالعكس ، مثلاً مدعياً لعل لنا أسلوب يراق بمتلى ، بالأفكار غير المتوقعة اللامعة ويدل عن معرفة عليية (مدعشة بشكل خاص فيما يتعلق بتاريخ البيولوجيا ويدون مرادف فيما يتعلق بتاريخ علم النفس) ولكنه لا يحمل من البنيوية المألوفة إلا بعض الظواهر السلبية من دون ان نستطيع أن نغيز في كتابه « أثريات العلوم الإنسانية » شيء إلا البعث عن نماذج مثالية تصورية مرتبطة بشكل خالص باللغة . يحقد Foucault بشكل خاص على الانسان ويمتبر العلوم الإنسانية مجرد نتيجة وقتية لهذه التطورات (التاريخية أولاً) أو العلمية التي تلاحق بدون تريب عبر الزمن ؛ وبالفعل ، هذه الدراسة السلبية التي نشأت في القرن التاسع عشر ، سوف تختفي بيئة جلية من دون ان تتمكن من التوقس ما هي النوعية العلمية الجديدة التي ستستبدلها .

أحد أسباب هذا الخوف القريب يبحث عنه «فوكو» بفضول في البنيوية نفسها التي تفتح على الاحتمالات نفسها، وعلى عملية تطهير العقل التجريبي القديم بواسطة إنشاء لغات شكلية وممارسة نقدية فإن العقل الصافي انطلاقاً من أشكال جديدة «الأولية الرياضية». وبالفعل إذا عممنا قدرات اللغة نفسها في لعبة الإمكانيات الممتدة إلى نقطتها القصوى فالذي يظهر هو أن الإنسان «منتهي»، وببلوغه قمة كل عبارة ممكنة لا يصل إلى قلبه بل إلى الحافة التي تحده: في هذه المنطقة حيث يحول الموت، حيث يضرب الفكر ويتراجع وعدهً الأجل لا نهائياً. (ص ٣٩٤ - ٣٩٥). ومع ذلك لا تشكل البنيوية طريقة جديدة؛ إنها الضمير الواعي والقلق للملم الحديث.

إن الخدمة الخاصة التي يقدمها الموميون الشاكرون هي إثارة مسائل جديدة برعزعتهم أوضاع الرخاء. نأمل إذاً أن يوفق Foucault مجيء «كانط جديد» يحملنا في استقامة ثانية من ركوده الدغمائي. تنتظر بشكل خاص من العمل الذي يتوخى الثورة، الذي يقدمه لنا هذا المؤلف، نقداً غلصاً لعلوم الإنسان وإيضاحات كافية للمفهوم الجديد للمومية، وتبرير للتصور المحدد الذي يعطيه للبنيوية. بهذه النقاط الثلاثة نبقى على جوعنا لأننا لن نجد تحت هذه القدرة الرائعة على التقديم سوى عدة تأكيدات أو إسقاطات. وعلى القارئ أن يعني بإيجاد البراهين بتنفيذه التقريبات كما يستطيع.

لا تشكل العلوم الإنسانية مثلاً «علومًا خاطئة» فحسب، بل إنها لا تشكل علومًا مطلقاً، والشكل الظاهري، الذي يحدد وضعيتها ويغرسها في المومية الحديثة، يضمها في نفس الوقت خارج التحديد الذي يحطها علومًا. وإذا سألنا عندئذ لماذا سميت بهذا الاسم، يكتفي بالتذكير بأنها تنتمي إلى التحديد الأخرى لتعجزها وبأنها تدعو وتستقبل الانتقال من نماذج مستمارة إلى علوم.

إذا طالبنا الآن ببراهين هذه التأكيدات غير المتوقعة لن نجد إلا البراهين التالية:

١ - الشكل الظاهري الذي يحدد وضعيتها هو ثلاثي السطوح trièdre الذي اخترعه فوكو ، أما أبعاده الثلاثة فهي :

أ - للعلوم الرياضية والفيزيائية :

ب - البيولوجيا والاقتصاد والعلوم القوية التي لا تشكل علوماً إنسانية .

ج - التفكير الفلسفي .

٢ - بما أن العلوم الانسانية لا تدخل في الفقرات أ، ب ، ج لا يمكن لهذه إذا أن تكون علوماً (هذا ما أردنا برهانه) .

٣ - أما إذا أردنا أن نعلم لماذا تعتبر كذلك ، فإن والتحديد الأثري لجذريتها يفسر هذا الاعتبار بسهولة ، لأن تحديدات فوكو الأثرية ، تعود إلى الحديث يعد ذلك عما جرى ، وكان ذلك كان يمكن أن يستتج أولياً من معرفة علوميتها ، لأن التاريخ يبرهن أن كل ما هو مفكر به سيقى يفكر به بواسطة فكرة لم تخلق بعد .

في الواقع يسهل تقدر فوكو للعلوم الانسانية المهمة بعض الشيء ، بإعطاء هذه العلوم تحديداً محدداً لا يقبله أي من ممثليها . مثلاً على ذلك لا يشكل علم اللغة علماً إنسانياً يتعلق فقط بهذا التعيين « الطريقة التي يستعملها الأفراد أو المجموعات لتمثيل الكلام... الخ » . لقد نشأ علم النفس العلمي من القواعد الجديدة التي فرضها المجتمع الصناعي على الأفراد في غضون القرن التاسع عشر (كنا نحب أن نعرف ما هي هذه القواعد) وجذوره البيولوجية قد قطعت بإصرار . وهكذا لا يبقى من علم النفس هذا إلا تحليل للتصورات الفردية التي يستطيع أن يكتفي بها مطلق عالم نفسي ، وبالطبع فإن العقل الباطن الفرويدي الذي يقدره فوكو بقدر ، يملن نهاية الإنسان بمعنى تفكك عقله الواعي كأداة دراسة متميزة تعسفاً . ينسى فوكو أن الحياة المعرفية بكاملها متعلقة بينيات غسيرة واعية أيضاً ، ولكن عملها يربط المعرفة بالحياة في كليتها . إن ذلك كله يفقد أهميته

إذا كان هذا النقد المتميز هو ثمن لاكتشاف ؛ من أول وهلة يبدو مفهوم العلومية جديداً ويبدو حاملاً نوعاً من البنيوية العلمية وهذا مرحب به . ولا تشكل العلوميات épistémè مجموعة فئات أولية بالمعنى اللكانطي للكلمة لأنه ، بعكس الأخريات أو بعكس نظرة « ليفي شتراوس الإنسانية » التي تقرض نفسها كضرورة بشكل دائم ، تتلاحق الأولى في مجرى التاريخ وحتى بطريقة غير متوقعة .

كما ان العلوميات لا تشكل مجموعات من العلاقات الظاهرية التي تتأق من عادات فكرية بسيطة أو من طرق ضاغطة يمكن أن تعمم في وقت ما من تاريخ العلوم . ولكن هذه العلوميات تشكل « أوليات تاريخية » ، الشروط السابقة للمعرفة ، كالأشكال الأولية ، ولكن لا تبقى إلا مدة محدودة في التاريخ ، فحركة مكانها لغيرها عندما تفقد حظها . من الصعب عندما نقرأ تحليلات فوكو عن العلوميات التي يميزها تدريجياً ، أن لا نفكر « بالنماذج » paradigmes التي وصفها Th. S. Kuhn في مؤلفه الشهير عن الثورات العلمية^(١) . للوهلة الأولى تبدو محاولة فوكو أكثر عمقا ، لأنها ذات طموح بنيوي ، لأنها إذا نجحت فسوف تؤدي إلى اكتشاف بنيات علمية خالصة تربط بينها المبادئ الأساسية للعلم في حقبة معينة ، بينما يقتصر كوهن على وصفها وعلى التحليل التاريخي للأزمات التي أحدثت التغييرات . ولكن من أجل تحقيق مشروع فوكو ، كان يتوجب وجود أسلوب عوضاً عن التساؤل بأية شروط مسبقة لنا الحق أن نعتبر أن علمية تعمل بالمعنى المحدد ، وحسب أية معايير يمكننا تحطلي هذه المجموعة أو تلك من العلوميات المختلفة التي يمكن لأي كان أن يبينها حسب الطرق المتنوعة لتفسير تاريخ العلوم . وثق فوكو بحمده واستبدل بالارتجال التفكير كل منهجية نظامية .

(١) The Structure of scientific revolutions . University of Chicago 1962 .

هناك خطر ان كانا محتومين :

أ - الاعتبارية في الميزات التي أطلقت على العلمية . أتت بعض الميزات في مكان ميزات أخرى ممكنة وأقيمت بعضها بالرغم من أهميتها .

ب - التباين في بعض الخواص المعبرة متضامنة ، ولكن التنمية لمستويات مختلفة من الفكر مع أنها تاريخياً معاصرة .

فما يتعلق بأولى هذه المقبات ، فإن ثلاثي السطوح ، الذي تكلمنا عنه والذي يمثل العلمية المعاصرة إيمناً من جميع وجهات النظر . قبل كل شيء يعطي فوكو نفسه الحق كما رأينا بأن ينطلق من العلوم الإنسانية على طريقته ، طارحاً علم اللغة والاقتصاد عندما تتعلق ليس بالإنسان ، ولكن بالفرد او بالمجموعات الضيقة ، بينما يعم علم النفس وعلم الاجتماع داخل ثلاثي السطوح دون أن ييلسا مركزاً ثابتاً . ترى اذاً ان هذه العلمية تخص فوكو نفسه ولا تخص التيارات العلمية التي يعود فيصنيفها على طريقته الخاصة . من ناحية أخرى ، فإن ثلاثيه هو ثلاثي "مكوني" ، بينما نجد أن الميزة الاساسية للعلوم المعاصرة هي مجموعة التفاعلات التي تسمى لإعطاء النظام شكلاً دائرياً مع تداخلات متعددة: دينامية حرارية ، وتقنية الاعلام . علم النفس x الاتولوجيا x علم النفس اللغوي x القواعد المولدة ، المنطق x التكون النفسي ... الخ . وأخيراً يُدرج التفكير الفلسفي كـ "مستقل" ، بينما تسمى العلمية يوماً بعد يوم لأن تكون جميع كل واحد من هذه العلوم ، ويتعلق مركزها نفسه أكثر فأكثر بدائرة هذه العلوم نفسها وبالعلاقات الانضباطية المشتركة التي تتغير بدون انقطاع ، (ولكن على ماذا ينطوي التأكيد الذي يعود غالباً عن الميزة) "التجريبية السامية" لهذا "الازدواج الغريب" الذي يمثل الانسان .

أما فيما يتعلق بالخطأ الثاني لمعلومات فوكو ، أي التباين الباطني ، يبدو ذلك

واضحاً جداً في اللائحة من الصفحة ٨٦؛ حيث 'ترجع علوميات القرنين السابع والثامن عشر إلى النسق الخطي وإلى أشجار الصنافة *arbres taxonomiques* . وبالفعل يتعلق علم قوانين التصنيف ببنية بسيطة تنتمي إلى التجميع المنطقي (راجع مقطع ١٢) . ولكن بينما ظل "الفكر البيولوجي على هذا المستوى" ، توصل الفكر الرياضي، منذ القرن ١٧ ، إلى التحليل التفاضلي *analyse infinitésimale* وإلى نماذج تفاعل (ليست خطية في شيء) كبداً نيوتن الثالث (التساوي بين الفعل ورد الفعل) : أن ندعم العامة بحجة القول بأن المقصود هو نفس العلومية لأن هناك تزامناً . هذا يجعلنا ضحية للتاريخ بالمنى الضيق ، بينما يدعي فوكو التخلص من ذلك ، بواسطة علمه الثقافي في « الأقربيات » . نكون عندئذ قد تخطينا عن المستويات ، في حين أننا نوجد هنا بكل تأكيد بين مستويين مختلفين .

هذه المسألة الكلية للمستويات ، تغيب كلياً من أبحاث فوكو لأنها تتناقى مع علوميته الشخصية « والأقربية » . ويصبح سر هذا التناقى باهظاً للغاية ، وتتابع العلوميات غير مفهوم أبداً ، ويبدو أن مبدعها يظهر بعض الارتياح . قبالفعل لا تستطيع العلوميات المتتالية أن تستنتج الأولى من الثانية لا شكلياً ولا ديكالكتيكياً حتى ولا تنتج الواحدة بعلاقتها مع الأخرى بأي ارتباط كانت وراثياً أم تاريخياً . ويتميز آخر فإن الكلمة الأخيرة « لعلم آثار » العقل هي أن العقل يتحول من دون سبب ، وتظهر بنياته وتختفي بتغيرات فجائية أو بروتات آنية حسب الطريقة التي كانت يستدل بها اليواوجيون قبل البنيوية الإحيائية الآلية المعاصرة . لا نبالغ إذاً إذاً نعتنا بنيوية فوكو بالبنيوية الحالية من البنيات . هذه البنيوية تأخذ من البنيوية المكونية جميع مظاهرها السلبية : عدم تقييم التاريخ والتكوين ، نفي الموضوع نفسه لأن الإنسان سائر إلى الزوال . أما فيما يتعلق بالمظاهر الإيجابية فلا تشكل بنياته إلا تراسم تصويرية وليس مجموعات من التحولات تحافظ على نفسها بضبطها الذاتي . النقطة الثابتة

الوحيدة في هذه اللاعقلانية الأخيرة عند فوكو هي الرجوع إلى اللغة المصممة على أنها تسيطر على الإنسان لأنها خارجة عن الأفراد: ولكن حتى « كائن اللغة » être du langage يبقى طوعياً يشكل بالنسبة إليه ، نوعاً من الغموض الذي يحلو له فقط ان يشير إلى « إصراره المضمّن » .

ولكن عمل فوكو لا يخلو من قيمة يتعذر استبدالها لحدة ذكائه الهدام :
يبين عمل فوكو بالتأكيد استحالة الوصول إلى بنىوية متماسكة إذا عزلنا هذه البنىوية عن البنائية^(١) .

(١) في مقابلة في دار الاذاعة الفرنسية نقلتها مجلة « la Quinzaine littéraire » عدد ١٩٦٨/٤٦ يعطي فوكو لأبحاثه تاريخاً جديداً يبعده تقريباً عن أحاسيس القارئ غير المتحاز. ويبدو من المفيد الإشارة الى أن هذا التفسير الجديد لا يستطيع إلا ان يبهج المراقبين بشوق، تمتد أعماله . اذا استوعبنا جيداً ، فإن الإنسان السائر الى الزوال لم يعد الإنسان الذي تصبو اليه الدراسات الموضوعية ولكنه إنسان ينتمي لإحدى « الإناسات الفلسفية » التي لم تعد راتجة. أخف الى ذلك ان البحث المألوم أصبح داخلاً في مختلف المألوم بدل أن يتكفى ، كل « بيولوجيا من أجل الفلاسفة » ... الخ وهكذا أخيراً، في هذا النوع من الجماعية في العمل النظري ، تكتمل فلسفة لم تجد بعد مفكرها الوحيد وبجتها الأفرادي . في هذه الحال تتلطف مجموعة الاهتمامات التي قدمها فوكو ؛ مثلاً على ذلك « اننا لا نقتل التاريخ بل نقتل التاريخ الحاس بالفلاسفة ، هذا التاريخ نعم أريد أن أقتله » . تأمل اذاً من فوكو ، بعد أن عادواكتشف انساناً عتقاً عن إنسان «فلاسفة (أو عبادي علم النفس الفلسفي) ان يعيد اليه بنياته وأن يجد حتى في البنىوية الموضوعية وأرائل بحثه الأفرادي ، بدل أن يرى في البنىويين مجموعة متنوعة من المؤلفين صنف فيها ولها عن إرادته ، « فئة توجد من أجل الآخرين » من أجل الذين لا يكونون » .

خاتمة

بتلخيصنا القضايا التي حاول هذا المؤلف الصغير أن يبرزها يجب أن نلاحظ أولاً أن عدداً كبيراً من تطبيقات هذه الطريقة هو حديث العهد ، والبنوية نفسها تلك تراثاً طويلاً في تاريخ الفكر العلمي ، ولو أن تكوينها حديث نسبياً بالنسبة إلى تاريخ الربط بين الاستنتاج والاختبار ، إذا قدر لنا أن نلتظر هذه المدة لكي نكتشف إمكانية الربط هذه ، فذلك عائد إلى أن الميل الطبيعي للفكر هو أن يتبع طريقه من السهل إلى المركب وأن يحل بالتالي الارتباطات وأنظمة المجموع قبل أن تفرض صعوبات التحليل نفسها للتعرف عليها . ومن ثم لأن البنويات لا تظهر كبنيات ولأنها تضع نفسها على مستويات . لأنه من الضروري أن نجسد أشكال الأشكال أو أن نجرد الأنظمة على القوة من ، وذلك يتطلب مجهوداً خاصاً من التجريد المتعكس . ولكن إذا كان تاريخ البنوية العلمية طويلاً بعض الشيء ، فالدرس الذي يجب أن نستخلصه من هذا التاريخ هو أن البنوية لا يمكن أن تشكل موضوعاً لعقيدة أو لفلسفة وإلا لأمكن تجاوزها بسرعة ، بل تشكل بالضرورة طريقة مع كل ما تتطوي عليه هذه اللفظة من التقنية ومن الالتزامات ، والشرف الفكري ، ومن التطور في التعريفات المتتالية . لهذا فهي كانت نوعية عقلية الافتتاح غير المحدد على المسائل الجديدة التي يجب على العلوم أن تحافظ عليها ، لا يمكننا إلا أن نكون قلقين في أن نرى الموضة تستولي على نموذج معين وتعطينا عنه نسخات فقيرة ومشوهة . يلزمنا إذاً بعض التراجع لكي نسمح للبنوية الحقيقية أي الموضوعية بأن تحكم على كل ما نكون قد ذكرناه وقمناه باسمها . بعد هذا التذكير نجد أن النتيجة الأساسية التي نستخلصها من بحوثنا المتتالية هي أن دراسة البنيات لا يمكن أن تكون جبرية ولا تفسيري ، من

جراء ذلك ، أي من الأبعاد الأخرى للبحث الذي يتعلق بعلوم الإنسان وعلوم الحياة بشكل عام . وبالعكس تسعى هذه الدراسة إلى توحيد هذه الأبعاد ، وبالطريقة التي تتم بها جميع التوحيديات في الفكر العلمي : على غلط التبادلية والتفاعلات . في كل مكان حيث نلاحظ بعض التشبيه في بعض الوضعيات البنوية الخاصة ، يَتَنَت لنا الفصول السابقة أن النماذج التي استعملناها لتبرير هذه التحددات أو التصلبات كانت على وجه التحديد تسير في مرحلة التطور باتجاه معاكس للاتجاه الذي حددناه لها . بعدما استخلصنا من علم اللغة مختلف أنواع الاتجاهات الحسية ، ولكن الجانبية بعض الشيء ، جاءت التحولات غير المتوقعة عند شومسكي لتخفيف هذه الرؤى المحددة .

أما الثاني من استنتاجاتنا العامة فهو البحث عن البنيات . بعقليته نفسها ، لا يمكن أن يوصل ذلك إلا إلى ترتيبات مشتركة الانضباط . والسبب البسيط في ذلك أننا إذا تكلمنا عن البنيات في ميدان مصطنع الحصر ، كميدان أي علم خاص ، نجد أننا نتقاد بسرعة حتى نصبح لا نعرف أين يحدد « الكائن » من البنية . لأن البنية حسب تحديدها لا تتطابق أبداً مع مجموعة العلاقات الظاهرية المحددة بفردتها في العلم الذي عيَّناه . مثلاً على ذلك يحدد ليفي شتراوس بنياته في نظام يتألف من بنيات التصور التصويرية schèmes conceptuels وتقع على نصف الطريق بين البنيات التعنيتية ، والممارسات أو الإيديولوجيات الموضوعية ، وذلك لأن علم السلالة هو علم نفس قبل كل شيء .

وليفي شتراوس حق في هذا ، لأن الدراسة النفسية الوراثةية للذكاء تبين أيضاً أن وعي الذات الفردية لا يحتوي قطعاً الإواليات التي منها يستنتج نشاطه ، وينطوي التصرف بالعكس وجود « بنيات » تعرض ذكائها بفردتها : زد على ذلك أن هذه البنيات هي نفسها التي تنتمي إلى الفريق أو إلى الشبكة أو إلى التكتل ... الخ . ولكن إذا سألنا أين نضع هذه البنيات ، عندها نغير مواضع كلمات شتراوس ونُجيب : نضعها في منتصف الطريق بين الجهاز العصبي

والتصرف الواعي نفسه ، « لأن علم النفس هو قبل كل شيء علماً بيولوجياً » ، وقد يتسنى لنا أن نواصل على هذه الطريقة ، لكن بما أن العلوم تشكل دائرة وليست تسلسلاً خطياً ، فإننا نهبط من البيولوجيا إلى الفيزياء ، هذا معناه أننا نعود بعد ذلك من البيولوجيا والفيزياء إلى الرياضيات ، نعود بالنهاية ، لنقل إلى الإنسان حتى لا تقع في عقدة التقرير بين جسمه وروحه . إذاً علينا استنتاجاتنا نجد بالفعل أن واحداً من هذه الاستنتاجات يفرض نفسه بنفس الدرجة من التأكيد التي يفرضها البحث المقارن : هذا الاستنتاج هو أن البنيات لم تقتل الإنسان ولم تقتل نشاطات الذات . بالطبع يجب أن تتسق المفاهيم فالمفارقات ، التي تتجسم عما نسميه « ذات » ، قد تراكت من جرّاء بعض التقاليد الفلسفية .

أولاً ، يجب أن نفرق بين الذات الفردية التي لا تهم دراستنا والذات العلمية أو النواة المرفقة المشتركة بين كل النوات الموجودة في نفس المستوى .

ثانياً ، يجب أن نقابل بين ما تستطيع أن تفعله الذات ضمن نشاطاتها الفكرية التي تعرف نتائجها وليس إواقيتها ، وبين الوعي الجزئي الذي غالباً ما يكون مشوّهاً .

ولكن إذا فصلنا الذات هكذا عن « الأنا » و « التجربة المباشرة » ، تبقى عملياتها أي ما تستخلصه بالتجريد المنعكس من التلسيقات العامة لأفعالها . والحالة أن هذه العمليات هي التي تشكل بالتعدد العناصر المكونة للبنيات التي يستعملها . إذا دعونا عندئذ الفكرة القائلة بأن الذات قد اختفت ليحل المألوف والعام محلها ، نكون قد نسبنا أنه على مستوى المعارف (كالمفاهيم الأخلاقية أو الجمالية) يفترض نشاط الذات لا مركزية مستمرة تحررها من إغوائها الفكرية الطوعية للفائدة ، وذلك ليس بالتعدد لصالح شمولية خالصة وخارجة عنها ، ولكن بسياق غير منقطع من تلسيقات ووضع ضمن تبادلات : والحالة أن هذا السياق هو الذي يولد البنيات في عملية بنائها أو إعادة بنائها المستمرتين . وبكلمة واحدة فإن الذات موجودة لأن « كائن » البنيات هو بحد ذاته بَشَرِيٌّ .

والذي يعطينا التبرير لهذا الالتهاب هو الاستنتاج التسالي المتخلص من المقارنة بين ميادين مختلفة: لا يوجد بنية من غير بناء مجرد أو بناء وراثي ولكن كما رأينا فإن هذين النوعين من البناءات لا يبعدان عن بعضها بقدر ما تصور ذلك عادة. منذ بدأنا مع غودل نميز بين البنيات القوية تقريباً والضعيفة داخل النظريات المنطقية والرياضية، اعتبرنا أن البنيات القوية لا يمكن أعدادها إلا بعد أعداد البنيات البسيطة (الضعف)، لكن لكونها ضرورية لإتمامها، يصبح نظام البنيات المجردة متضامناً مع بناء المجموع لا ينتهي أبداً ويتعلق بحدود التعقيد.

أي أنه بتعدينا، أن أي محتوى يشكل بعد ذاته شكلاً لمحتوى أدنى وأن شكلاً يمثل دائماً محتوى للأشكال العليا. في هذه الحال يصبح البناء المجرد العكس المعتمد للكون، لأن التكون يتبع هو الآخر طريق التجريد المتعكس، ولكنه يبتدىء من مستويات أقل ارتفاعاً.

وبالتأكيد في الميادين حيث تجهل المعطيات الوراثية وإذا صح القول حيث تضيق كما في علم الأخلاق، يبدو طبيعياً أن نظهر بظهور لائق أمام لعبة رديئة وأن تدبر أمرنا لاعتبارنا التكون كشيء عديم الجدوى. ولكن في الميادين حيث يفرض التكون نفسه على الملاحظة اليومية، كما في علم نفس الذكاء، نلاحظ في الواقع أنه يوجد بين التكون والبنيات ترابط ضروري، ولا يشكل التكون أبداً إلا طريق المروء من بنية إلى أخرى، ولكن صفة هذا المروء الأساسية هي أنه مكون ويقود من الأضعف إلى الأقوى. كما أن البنية لا تشكل إلا مجموعة تحويلات، ولكن جذور هذه التحويلات هي جذور عملية وتعلق بتكون سابق للأدوات المناسبة.

ولكن مشكلة التكون هي أكثر من مجرد سؤال في علم النفس: إنها معنى مفهوم البنية ذاته الذي يتجلى. والانتقاء المألومي الأساسي يعتبر انتقاءً لسبق انتقاء لبنائية.

وبالطبع يبدو جذاً أباً بالنسبة للرياضي أن يعتقد «بالمثل» ، وأن يفكر أنه قبل اكتشاف الأعداد السالبة وقبل اكتشاف استخلاص الجذور للأعداد التخيلية $\sqrt{-1}$ ، أن هذه الاكتشافات كانت موجودة منذ الأزل في الجنة . ولكن منذ قانون غودل ، توقف الله نفسه عن جوده وأخذ يبني من دون انقطاع أنظمة تزداد قوة مما يجعله حياً أكثر .

والحال أننا إذا مررنا من الرياضيات الى البنيات الواقعية او « الطبيعية » ، تزداد عندئذ المشكلة حدة : ففطرية العقل عند شومسكي او استمرارية الفكر الانساني عند ليفي شتراوس لا ترضيان الروح إلا بشرط إهمال البيولوجيا . اما فيما يتعلق بالبنيات العضوية فيمكننا أن نرى فيها بدورها ، إما نتائج البناء المتطور ، وإما تتابع ترتيب كانت عناصره مسجلة في كل حين في الحوامض النووية الأصلية .

وبالخلاصة فإن المشكلة تعاود طرح نفسها على جميع المستويات . أما في الميادين المحدودة حيث وضعنا أنفسنا فيكفيها ، لكي نستنتج ، أن نلاحظ بأن الأبحاث حول البناء الوراثي موجودة ، وأنها كثفت ولم تضعف قط من جرم الرؤى البنيوية ، وبالتالي ، أن تأليفاً يفرض نفسه كما نرى ذلك في علم اللغسة وسيكولوجية الذكاء .

تبقى النغمة اذا كان موضوع المعرفة لم يقم جانباً من قبل البنيوية ، واذا كانت بنياته لا تنفصل عن التكون ، فمن البديهي أن تصور الوظيفة يفقد شيئاً من قيمته ويبقى منظوماً في الانتظام الذاتي الذي تتجهج البنيات .

ولكن تتميزز هنا أيضاً حجب الواقع بواسطة الأسباب الشكلية أو الحقوقية . ويرجع بقي العمل بالفعل في ميدان البنيات الطبيعية الى افتراض وجود كيان اذا كان ذلك يتعلق بالموضوع نفسه أو بالمجتمع أو بالحياة .

فهرس

الصفحة

٥	مقدمة
٧	الفصل الأول . - المدخل وطرح المسائل
٧	١ - تحديدات
٩	٢ - الجملة
١١	٣ - التحويلات
١٣	٤ - الضبط الذاتي
١٧	الفصل الثاني . - البنيات الرياضية والمنطقية
١٧	٥ - مفهوم الفريق
٢١	٦ - البنيات الام
٢٥	٧ - البنيات المنطقية
٢٩	٨ - الحدود البديلة للتعميد الاستباطي
٢٣	الفصل الثالث . - البنيات الفيزيائية والبيولوجية
٢٣	٩ - البنيات الفيزيائية ومبدأ السببية
٢٩	١٠ - البنيات العضوية
٤٥	الفصل الرابع . - البنيات النفسية
٤٥	١١ - بدايات البنيوية في علم النفس ونظرية الصيغة
٥١	١٢ - البنيات ونشأة الذكاء
٥٧	١٣ - البنيات والوظائف

٦٣	الفصل الخامس . - البنيوية اللغوية
٦٣	١٤ - بنيوية النظام اللغوي المتزامن
٦٥	١٥ - البنيوية التعويضية والعلاقات بين تطور
٦٧	١٦ - كائن الفرد والنسالة
٧٢	١٦ - التكون الاجتماعي ، الفطرية او موازنة
٧٦	البنىات اللغوية
٨١	١٧ - البنىات اللغوية والبنىات المنطقية
٨١	الفصل السادس . - استعمال البنىات في الدراسات الاجتماعية
٨١	١٨ - البنىويات الأجنبية او المنهجية
٨٧	١٩ - بنيوية كلود ليفي شتراوس ؛ الانثروبولوجيا
٩٧	الفصل السابع . - البنيوية والفلسفة
٩٧	٢٠ - البنيوية والديالكتيك
١٠٣	٢١ - بنيوية دون بنىات
١١١	خاتمة

Jean PIAGET

LE STRUCTURALISME

Texte traduit en arabe

par

Arif MNEIMNE

&

Béchir AUBERY

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Paris

زحني علمًا

- ديكارت والعقلانية / جنيفاف روديس لويس (٦٣) . . .
- روسو / اندريه كريسون (٢٦)
- طبيعة الميتافيزيقا / جماعة من الفلاسفة الانكليز (١٧٨)
- عظمة الفلسفة / كارل ياسبرس (٨٨)
- العقل والنفس والروح / عبد الجبار الوائلي (١٦٢) . . .
- علم الجمال / دني هويسمان (٥١)
- الفكر العربي / محمد اركون (١٧٧)
- الفكر الفرنسي المعاصر / ادوار موروسير (٩)
- الفوضوية / هنري آرفون (١٩٦)
- فلاسفة انسانيون / كارل ياسبرس (٩٥)
- الفلسفات الكبرى / بيار دوكاسيه (٤١)
- فلسفة التربية / اوليفيه ريبول (٥٣)
- فلسفة العمل / هنري آرفون (٤٩)
- الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر / جان فال (٣٠)
- فلسفة القانون / هنري باتيفول (١٣٤)
- الفلسفة والتقنيات / جان ماري اوزياس (٩٢) . . .
- فولتير / اندريه كريسون (١٨٦)
- قيمة التاريخ / جوزف هورس (٧٦)
- الكلام / جورج غوسدورف (١٠٧)
- كيركيفارد / بيار مسنار (٥٨)
- اللحظة العدمية المتعالية / الدكتور محمد الزايد (٩٠)

EDITIONS OUEIDAT



0351321



EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth-Paris

To: www.al-mostafa.com